مجموعة قصصية

مقامات الاحتراق

سناء شعلان

نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

إضاءة

هذه مصافحة أخرى مع الإبداع يبادر إليها نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي ،الذي حرص دوماً على الاحتفاء بالمبدعين من مختلف ربوع وطننا العربي، وفتح مواهبهم وإبداعهم على كلّ ما يتوفّر لديه من فضاءات. فقد احتضن صالون الجسرة الثقافي عدة مواهب في مجالات الشعر والقصة ،بل إنّ جيلاً من الأدباء الشباب قد تخرّجوا من هذا الصالون.

وشجّع النادي الإبداع مسموعاً ومكتوباً، فأسهم في عدة إصدارات، وها هو اليوم يقدّم للقارئ العربي هذه المجموعة القصصية للكاتبة الأردنية سناء كامل شعلان.و وهذه المجموعة التي تحمل عنوان " مقامات الاحتراق" تمثّل طور النضج في فن النقد عند هذه الناقدة الشابة المتألقة.

آملين أن يحقّق هذه الإصدار إضافة جيدة للمكتبة العربية، وراجين كذلك أن يستمر تواصلنا مع كلّ المبدعين في وطننا العربي الكبير.

نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

الفهرست

إضاءة	٣
١- الحكاية البداية.	٧
٢- مقامات الاحتراق.	٨
٣- سِفْر الجنون.	١٧
٤- مآتم الرصاص.	٢٩
٥- في القدس لا تشرق الشمس.	٤٤
٦- القبعة الزرقاء.	٥٠
٧- أمينة.	٥٦
٨- هدية الإله.	٦٠
٩- كائن ليلي.	٦٥
١٠- صوت الصمت.	٦٧
١١- هلال المجرم.	٧١
١٢- المصعد القديم.	٧٤
١٣- أصابع وقحة.	٧٦
١٤- الكفّ.	٧٧
١٥- السيدة أنوار.	٧٨
١٦- خليفة الله.	٨٠

١٧- عابد المستعجل.	٨٢
١٨- عملية ناجحة.	٨٤
١٩- الشيطان يعشق.	٨٦
٢٠- حادثة انتحار عصفوريّ حبّ.	٨٨
٢١- السّيد نجمة.	٩٠
٢٢- سرير صغير.	٩١
٢٣- الطفل الأعجوبة.	٩٢
٢٤- تمثال الحرية.	٩٣
٢٥- المطاردة.	٩٤
٢٦- لوحة جميلة.	٩٦
٢٧- مرايا.	٩٧
٢٨- رأس خنزير.	٩٨
٢٩- عدالة.	٩٩
٣٠- قوائمٌ ثلاث.	١٠١
٣١- تواصل إلكتروني.	١٠٤
٣٢- أنتِ.	١٠٧

الحكاية البداية

في البدء كانتْ الكلمة ثم كانتْ الحكاية، ثم كانتْ أرض الحكايا التي فيها سفرٌ قد كُتبت على صفحاته بسلطة الزمن: "في السماء جعل الله السعادة والحياة والحبّ وكلّ شيء جميل على شكل أحلام عمياء، ولكن عذبة، وجعل الموت والفراق وكلّ شيء حزين على شكل كوابيس حادّة البصر، وأرسلها جميعاً إلى الأرض. أحلامنا الجميلة تُسرق، وتكون حقيقة غيرنا، ويسمّون ذلك نصيب، وكوابيسنا تجدنا بنظرها الحادّ، ويسمّون ذلك قدر، ونبكي؛ فيسمّوننا لذلك بشر".

مقامات الاحتراق

"من سِفْر سلطان الواهبين سمعان الأطرش"[*]

(١)

مقام الشوق

أمضى ليلته في حضن سمرائه الصغيرة، لا يذكر تماماً أين قابلها، لكنّه يحفظ جيداً طقوس شهوتها، وجغرافيا جسدها، شرب منها حتى الثمالة،وانسلّ من جانبها، ليسدر في فراش زوجته التي طال انتظارها له، التصق بها، وقال بحروف الارتواء الوهى:

"أنا عطشان إليك".

(١)

مقام الموت

الاسم الذي نُقش بماء الذهب على واجهة القبر البارد كان اسم

---

[*] كان سيعطى لو سمع.

أمّها، المشيعون الذين انفضّوا عن القبر عزّوها بوالدها، في أصبعها الصغير دسّت خاتم زواج أمّها، الباقي الوحيد بعد رحيلها، قدماها تسيران بانتظام دون عرج، كلّ الدلائل تشير إلى أنّ أمها العرجاء هي من ماتت، فلماذا إذن تُحسّ بالقبر يطبق على صدرها، ويعلو صوت خطوات عرجاء على وجيب قلبها الدامي؟!

(٣)

مقام الغياب

بلغ مشارق الأرض ومغاربها بحثاً عن ابنه الضائع، فقد سرقته نسائم رياح تشرين، وذرّته مع نسائمها، أراده يداً حانية تسند شيخوخته، أراده إرادة خضراء تزُهر أرضه، أراده قدح ماء زلال يروي عطشه، تنسّك في بحثه، وطالتْ لحيته الخضراء حتى طوّقتْ الأرض، واستمهل الموت حتى يجد ابنه الضائع، ثم وجده، فكان ابن برودة الرياح لا ابنه، كان قاسياً كصرخة، بارداً كابتسامة ميّت، صامتاً كوجه غريب... عندها قرّر أن يعود للبحث من جديد عن ابنه الذي وجده؛ لأنّه عاد ولم يعد.

(٤)

مقام التمنّي

عرفتْ من الرجال الوغد واللئيم والبخيل والجبان والخائن

والبشع، ولم تعرف الشهم الكريم المقدام صاحب المروءة شأنه هو، لذلك قرّرتْ أن تقطع علاقتها به؛ فهو أجمل من أن يكون حقيقة، وهي تكره الأكاذيب.

(٥)

مقام الزّهد

اعتكف في رأس جبل عارٍ من الشهوة والارتواء، ثمانين عاماً ما ذاق شهوة، ولا انتفض من رغبة، ولا أطلق زفرة حرمان، وعاهد الربّ على أن يموت عطشان جوعان يسكن البرد في عظامه. ومات بعد أن أخذ رشفة رحيق من شفتيها، فمات ريّان شبعان، تلفح عظامه حرارة العشق.

(٦)

مقام الخيانة

انتصب أمامها كعملاق أعرج، اتكأ على آلاف الحجج، وعلّل خياناته لها بمئات الأسباب، برم شفتيه اللتين لاكتا شفاه معظم عاهرات المدينة، ثم بصقتها بتقزّز، وقال: هناك يا زوجتي الكثير من الأسباب التي دفعتني إلى خيانتك.

قالتْ بلا مبالاة ممزوجة بالسخرية وهي تلمّع أرض الكنيف: اعطني بالله عليك سبباً واحداً من هذه الأسباب الكثيرة.

قال بثقة، وهو يذبّ لثاثته: لون صبغة شعرك التي اشتريتها لك على سبيل المثال لا يعجبني.

(٧)

مقام التضحية

تمثّل بحبّها أجمل أنواع البذل والتضحية، وهبها ذاكرة مطعّمة بالعطايا والهبات والصلات، عرّفها بالكرم العربي أمام الجمال الفرنجي، جوّع الرعيّة، وأشبع كلابها الخلاسية المئة، وعندما أرادت أن توقد شموع مخدع ليلتهم الحمراء، أضرم النار بالسلطنة، كي تأخذ منها قبساً لشعلة واحدة من المكان الذي تشاء.

(٨)

مقام الحياء

على جدار المعبد رُسمتْ صورة ألف طريقة للمعاشرة، كانتْ ترقب الزوّار بتقزّز، صرختْ فجأة: هذه وقاحة لا تُطاق، وغادرتْ المعبد على عجل. في اليوم الثاني صباحاً وقفتْ أمام الجدار تتأمّل الصّور بمكبّر مسلّط عليها، فقد كانتْ الصور صغيرة للغاية، ودقائقها تحتاج إلى توضيح.

(٩)

مقام الوفاء

لم يستطع أن يتخيّل امرأة أخرى تنام في سريرها، وتلبس ملابسها، وتسقي زهورها؛ لذلك فقد استأجر بيتاً جديداً، لا زهور أو نباتات منزلية فيه، وتزوّج امرأة نحيلة، لا تناسبها ملابس زوجته المتوفّاة.

(١٠)

مقام الحرمان

قالوا بترحّم ممجوج على خيّاط الحيّ العجوز:

"رحمه الله، مات؛ لأنّه قد بلغ من العمر عتياً، فعمره قد انتهى".

لكنّ صاحبة ثوب الزفاف الأبيض كانت ترى دماءه مسفوكة على ثوبها الذي خاطه بدموع عشقه العاجز، وأهداه لها، لتزفّ به إلى رجلٍ سواه.

(١١)

مقام الغيرة

لم يستطع أن يحتمل أن يرى رجلاً ينظر إلى جاريته نظرة اشتهاء، وفي لحظة غيرة مجنونة سمل عينيه، واستراح من عذابه.

(١٢)

مقام الشرف

كان الشرف كائناً كسولاً إذا ذهب لا يعود، أمّا بعد الحمية الصحية والرياضة السويدية المكثّفة فقد غدا كائناً نشيطاً مرناً يأتي ويعود وَفْق الضرورة والحاجة، وتُخاط منه غلائل برّاقة للخطب ولمواسم الأفراح.

(١٣)

مقام التجربة

يملك أفكاراً مجنونة، وفرضيات غير مثبتة، وآراء متطرّفة، لكنّه مولع بشكل خاص بالتجربة والإثبات والنتائج العلمية الثابتة.

مشاعر البشر عنده حقل للتجارب والتفاوض، في التجربة الأولى والثانية والثالثة كانت نتيجة الحبّ تساوي إخلاص، لكنّ في المرة الرابعة كانت النتيجة تساوي بُعاد وألم.

خلص إلى قاعدة تقول: إنّ الحبّ مادة هلامية مطّاطة، تتأثر بالحرارة، وبعنصر مجهول غير محدّد حتى الآن.

(١٤)

مقام الحقائق

ضحّى بنصف عمره؛ ليصل إلى الحقيقة، وأنفق النصف الثاني؛

لينسى تلك الحقيقة.

(١٥)

مقام الاجتهاد

لألف يومٍ لم ينمْ، هجر دنيا النّوم، وعالم الأحلام، وتشبّث بمداده ودواته ليستحضر فريد علمه، وغزير ثقافته، ويانع موهبته كي ينتهي من مصنّفه الخالد، جمع فيه علم الأوّلين والآخرين، وصاغه بجمان نثره، وعقيق نظمه، وانتهى من مصنّفه مع شفق اليوم المضروب لذلك.

جاء الغريب رسول سوق الورّاقين، دفع ثمن المصنّف فريد عصره، ثم قلّبه على عجل، وأمر بأن يخطّ عليه اسم الذي اشتراه، وسيدّعي أنّه سطّر ما فيه من علم، ارتجفتْ يدا العالم الفقير، وشعر بأنّ نفسه تتساقط أنفساً، وخرّ ميتاً على مصنّفه الضخم دون أن يكتب عليه اسماً غير اسمه، في حين تيبّستْ عيناه في نظرة نحو السماء بعيداً عن كيس المال المهدور عند قدميه.

(١٦)

مقام الصفاء

مدّ يده بعد جهد وليّ، وصافح منافسه التاجر، زكمتْ أنفه رائحة طيبته المقرفة، وكاد يتقيّأ تقزّزاً من سماحة ملامحه، وحلو

معشره، أقسم على الصفاء، ونسيان مقت الماضي وغلّه، وكي لا يحنث بقسم الصفاء فقد أوصى رجاله بأن يُطعنوا غريمه التاجر برقّة بسكينٍ من ذهب.

(١٧)

مقام الأخوة

دمهما واحد، رحم واحد حمل بهما، غذّيا بطعام واحد، ولأنّ أفكار أحدهما موجهة أولاً نحو الآخر، فقد قرّرا في لحظة واحدة ودون سابق تخطيط أن يقتل أحدهما الآخر، ومن جديد اختلط دمهما الواحد.

(١٨)

مقام الثورة

أخطاؤه كثيرة، ولكن لحظات استغفاره وتوبته أكثر، وعلى الرغم من ذلك لا يستطيع أن يحدّد بالضبط ذلك الأمر الخيّر الذي أدخله إلى الجنّة، ونِعْم الأمر هو أيّاً كان.

للوهلات الأولى كانت الجنّة جميلة وممتعة وأرض للرفاهية، لكنّها باتتْ في ثوانٍ ضوئية مملّة لا محفّز فيها للأمل أو الطموح، حاول أن يحتال على نفسه، ويقنعها بالسعادة، وعندما فشل في ذلك قاد ثورة على رتابة الجنّة، وطالبَ بحفنة من الأمنيات صعبة

المنال، والطموحات مجهدة التحقيق.

(١٩)

مقام التوحّد

فشل في أوّل تجربة حبّ له، وقُطع لسانه في مجلس القاضي؛ لأنّه قال الحق، وكاد يأكل نفسه جوعاً؛ لأنّه رفض أن يأكل مال الأيتام، وطالتْ قائمة الفشل والهزيمة والانكسارات، فبحث عن نفسه فلم يجدها، وما عاد يشعر بأنّه يسمع أو يحسّ أو يحلم، فبحث عن شيء يشبهه، ووجد ضالته في حائطٍ صلدٍ باردٍ، فتوحّد معه.

سِفْر الجنون

"سِفْر لمن يصمّم على أن لا يعرف..."

(١)

الجسد المجنون

كانت القضية أعقد من شرح حالة سلوكية أو سيكولوجية، لذلك فقد عجز عن أن يشرح حالته بالكلمات للأطباء المعالجين له، تماماً كما أُلبستْ حالته على التشخيص الطبي، فحُوّل إلى قسم الأمراض النفسية فالعقلية، أصابه وجوم ملازم، وسقط عليه الصمت من السماء، فأعتنقه ديناً ومنهجاً بعد أن أُصيب بحالة بوح فريدة، فقد انزلق في حالة هستيرية جعلتْ لسانه لا يتحرّك إلا بقول الحق، ولا ينطق إلا بصدق، وما كان عرف قبلاً من الصدق إلا قليلاً.

بدأتْ الحالة عندما شعر برغبة مفاجئة وجارفة بأن يبصق أكاذيبه ومجاملاته الفارغة وجمله البرّاقة التي لطالما فتحتْ أمامه أبواب المال والسلطة، وجعلتْ له نافذة على مخادع الجميلات. كان يريد أن يخلص لنفسه، وأن يكونها ولو لمرة واحدة.

وما كاد يأخذ قراره، ويسمح لنفسه بأن تحلّق بحريّة في جسده حتى غمره دفء سكوني عميق، بل غمرته برودة سمحاء، للدّقة غمره الشعوران معاً دفعة واحدة، فشعر بنشوة غريبة، وبعقدةٍ تحلّ من لسانه، فطفق يسمي الأشياء بمسمّياها، ويقول الحق دون أن يحيد عنه قَيْد أنملة، ونبذ جانباً المجاملات المكسوة بقشور الكذب، وتكلّم وتكلّم وتكلّم... وبصدق، وسرتْ رعدة من السعادة في جسده، فانسرب في رقص عنيف لا يعرف توقّفاً.

شعر بسعادة غامرة، وأحسّ لأوّل مرة في حياته بالحريّة والطمأنينة، لكنّهم شعروا بالخطر، وتآمروا على جسده المسكون بجنون الصدق، فدفعوه إلى ما خلف العقل، حيث مستشفى المجانين، وتمنّوا أن ينسى الجميع كلامه الصادق الذي قاله في لحظة جنون...

هو الوحيد الذي لم ينسَ، بل ضحك كثيراً وكثيراً؛ لأنّه قال كلّ ما يريد، ثم اعتلى الصمت الجميل، وانقطع في سريره الأبيض في جناح المجانين الخطيرين؛ ليتأمّل نفسه الجديدة، وطال التأمّل، فالمطّلع كان هائلاً، والعمر كان قصيراً...

(٢)

قلب مجنون

كان في حاجة إلى قلب واحد فقط ليهبه الحياة، قلب يضخّ

الدماء في حركة رتيبة خالدة اسمها نبض الحياة، كان يحتاجه بقدر عطشه إلى المزيد من اللحظات الدنيوية لا سيما تلك المسروقة من حياته، وما أكثرها من لحظات مسروقة كانت في حياته!! قيل له إنّ القلوب تتشابه إذا كانت في صحة جيدة، وليست معطوبة كقلبه الذي وُلد به، فكان بئس القلب، ضعيف البنية، هابط الهمة، قاسياً، لا يرقّ لبشر.

اشترى قلباً جديداً، وطفق ينتظر بفضول مع أطباء المستشفى الاستشاري الذي أودعه قلبه القديم المعطوب أن تتحسّن أحواله الصحية.

وتحسّنت صحته، لكن قلبه بقي معطوباً، يُحسن ضخ الدّم، ويحتمل ضغوط التعب والرياضة والانفعال، ويقوم بواجبه البيولوجي على خير ما يرام، لكنّه معطوب بخلجاته الإنسانية الكثيرة، تتقبّض وشائجه عند آلام أيّ بشر، وتنتفض غلائله لمرأى المنكوبين والمنكودين، ويتوتّر بجنون عند مرأى البحر، ويحنّ بشوق غريب إلى إلهه الأخضر المعشوشب.

كان قلباً مجنوناً يحفظ آلاف الذكريات عن عالم تلك المرأة الساحلية التي اشترى قلبها بعد أن يطفئ إعصارٌ غاضبٌ جذوة حياتها الشّابة، ويلفظها لأصدافه المنكوبة، ولسواحله المدمّرة.

هاجم وجيب قلبه المثخن بأحزانه وبذكريات عقله جسده، واحتلّ عواطفه، حاول أن يشرح معضلته للأطباء، ولكنّه فشل في

ذلك تماماً، نَعِمَ على حين غرّة بحبّ الناس والأهل؛ إذ غدا إنساناً رقيقاً مرهفاً، ولا عجب، فهو يمتلك قلباً من زبد البحر. استسلم لقلبه المجنون المعطوب، وسدر في وجيبه العتيق اللذيذ، وقدّم نفسه قرباناً للبحر...

(٣)

عنبر رقم (٩)

لا يروقه أبداً مبدأ التقسيم والتصنيف، فقد وصل إلى هذا المكان الذي يضجّ بالملاءات البيضاء والأسرّة الحديدية الصدئة والرؤوس المثخنة بالهراء والجنون بسببه. إذ كان التصنيف عدوّه الأوّل. في البيت كان تصنيفه الابن الزائد المتواضع الجمال والذكاء، في ساحة المعركة كان تصنيفه الجندي المتمرّد على الأوامر، والخارج عن الطاعة، والرافض أن يرفع إشارة الاستسلام، وفي العمل كان تصنيفه المشاغب الذي يفتقد إلى المرونة، ومعها كان تصنيفه الرجعي الشهواني الذي لا يجيد مقايضة جسد الزوجة الجميلة مقابل المنصب الخطير، ولأنّه صرخ قائلاً: لا، فقد كان تصنيفه في هذه المستشفى التي ابتلعها النسيان في عنبر (٩)، حيث المجانين الأخطر، والحالات الميئوس من شفائها.

لكنّه يستطيع أن يعترف بأنّه سعيد ولأوّل مرة حياته بتصنيف ما، ففي هذا العنبر رجالٌ يشرّفه أن يكون في خانتهم، ولو كان ذلك

في الدرك الأسفل من الجحيم، فجميعهم وصلوا إلى هذا المكان؛ لأنّهم ثاروا على مبدأ التقسيم والتصنيف، ورفضوا أنصاف الحلول، وأنصاف الأخلاق، وأنصاف الشرف، وأنصاف المبادئ، لذلك آلوا إلى العنبر (٩).

يتكئ على مسند سريره الصدئ، يقضم لرويةٍ خيارةً يحملها، ويبتسم راضياً بتصنيفه الجديد، فإن كان عنبر (٩) هو عنبر رافضي التصنيفات الجائرة، فإنّ العالم خارجه هو ساحة للمجانين الطلقاء.

(٤)
لحظة عقل

لا تستطيع أن تتذكّر شيئاً ما قبل الجنون، فالجنون تاريخ بحدّ ذاته، وميّزته اللذيذة والمهمة أنّه ينسخ غيره من التواريخ، وما يعنيها في هذا المقام هو أن تستجمع نفسها، وتلتقط بأناة وإرادة جبّارة وجادّة لحظات عقلها، كي تخرج من هذا المكان الرهيب، آن لها أن تستجيب لنداء العقل، وأن تخلع معطف الجنون ما دام ذلك يعني أنّها ستخرج من المستشفى بمجرد هجرها لطقوس الجنون، واستجابتها للعلاج.

القرار المتعقّل الأوّل الذي اتخذته كان قرار أخذ أقراص الدواء المقرّر لها، بدل أن تلصقها على الحائط حيث صنعت جدارية ضخمة من أقراص الدواء المصلوبة على رفضها.

هي مصابة بكآبة حادّة منذ أن اغتصبها ذلك الوحش الرهيب، لسنوات وهي تتعالج دون طائل، بل إنّها ترى نفسها في كلّ ليلة ضحية ضعيفة تتناوشها أعضاء ذكرية مفترسة، فتدميها مرة تلو أخرى، وهذا الكابوس كان وجعها الوحيد في باحة الجنون.

لكن منذ أيام قد بلغت السّن القانونية التي تسمح لها بأن ترث ثروتها المتبقية الوحيدة من ذكرى شيء عذب اسمه عائلة، ولكن عليها أولاً أن تتماثل للعقل كي تخرج من هذا المكان، وتظفر بحياة جديدة في فسحة ما.

حالتها النفسية والعقلية في تحسّن مستمر، ولكنّ ذلك الكابوس الدامي لا يزال ينتهك حرمة ليلها، ويلوك عذريتها المهدورة، لا بدّ أن تفتك بكابوسها اللئيم، ستقتله كما قتلتْ ذلك الوحش في ذاكرة الماضي، تسرق سكينة كبيرة من المطبخ، وتحزّ عنقه مع أوّل ارتجافه شهوة يمدّ بأدراها نحوها، ويموت الكابوس.

- سريّ للغاية:

١- المريضة لا تزال في حاجة إلى المزيد من العلاج النفسي لا سيما بعد أصابتها بلوثة جنون دفعتها إلى قتل طبيبها المعالج.

٢- المريضة مصابة بكآبة حادة بعد عملية إجهاض عاجلة أُجريتْ لها سرّاً.

٣- نأمر بهدم الجدار الغربي الفسيفسائي في الغرفة رقم (٧).

٤- يُوصى بتحويل المريضة إلى جناح الحالات الخطيرة.

(٥)

ليلة ماطرة تقريباً

كان الجو شبه ماطر، بالتحديد يمطر بقوة، ولكنّه لا يبلّل أشواقه أو يخمدها، إذن فهو ماطر تقريباً، حزم حقيبته الجلدية الصغيرة على عجل بعد أن ألقمها سخّان شاي قديم، وصورة لها، وبعض النقود المفقودة الغالية في هذا المكان، وانسرب من المكان لا يلوي على شيء.

هي كانت وجهته، استجمع كلّ ذاكرة جنونه التي تضجّ بالنسيان وبها وبحبهما، وقطع دُجى الليل الماطر بلحظات جنون عذبة، اسمها حبّ.

ركن بانكسار إلى سور حديقة بيتها، وقطف بشوق زهرة حمراء، أثقلتْ حبّات المطر بتلاتها النّضرة، طرق بابها بضع طرقات، بحث في ذاكرته المشحونة بالتوتّر والشوق عن كلمات تستطيع أن تشرح لها أنّه عاد إلى العقل، وهرب من مستشفى المجانين فقط ليهديها زهرة، وليقول لها: أحبّك... ولكنّه لم يجد تلك الكلمات.

فتحتْ الباب نعسى حزينة، وجنتاها باهتتان، فيهما آثار انتظار طويل، مدّ إليها زهرته الوحيدة، ابتسمتْ بصفاءٍ هيّج قيعان شوقه، وثوّر لجج حرمانه، وأنساه لحظة مجنونة كاد يقتلها فيها قبل سنوات

غيرةً عليها، وضناً بها على أيّ رجلٍ آخر.

تناولتْ الزهرة بأناملها الوردية الصغيرة، اقتربتْ منه حتى كادت شفتاها تلمسان رقبته التي غزتها دفقات المطر. وقالتْ له: ادخل... فالليلة ماطرة.

ابتسم لها وهو يتنشّق سيلاً عجيباً من المخاط والدموع وحبات المطر، وقال: ليلة ماطرة تقريباً.

(٦)

خطوة واحدة

"هناك خطوة واحدة تفصلنا عن المآل، خطوة واحدة تفصلنا عن الحقيقة، خطوة تفصلنا عن البداية، وخطوة تفصلنا عن النهاية، كما أنّ هناك خطوة تفصلنا عن السعادة أو الشّقاء أو الحبّ أو الكره...". صوت تصفيق الغوغاء من نزلاء المصحّة يقطع عليه خطاب "الخطوة" الذي اعتاد على أن يتحف به المرضى إجباراً كلّما داهمته حمى التخوم ، وفوضى الحدود، وفلسفة الخطوة.كان في زمن ما يعيش قبل جغرافيا الخطوة الأخيرة ، وتاريخ الدلوف فيها، لكنّه في لحظة غاية في الجنون أو في التعقّل أدرك أنّ الفاصل ما بين دنيا الفوضى والمفارقات والانكسارات المسمّاة العقل، ودنيا الراحة والوضوح والمآل اللذيذ المسمّاة جنون خطوة جريئة واحدة ، لذا فقد استجمع كلّ عقله ، وخطا خطوته الأخيرة الميمونة ، ودلف

إلى دنيا الجنون، حيث يدرك أصحابها أنّ الفاصل بين العالمين هو خطوة.

(٧)

مسابقة شعريّة

كم هو معجبٌ بمقولة النّفري إذ قال: "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"، ولكن ما نفع المقولات المعلّلة للعيّ إذ قعدت به في هذه اللحظة دون أن يكمل هذه القصيدة الخالدة التي سيقدّمها إلى أعرق مسابقة للشّعر في كوكب الأرض، وبالتحديد إلى أكاديمية النّفح السّحري في عاصمة أطلنطا الغارقة في المجهول.

هو في حاجة إلى هذه الفوز لألف سبب، ومصمّم على الفوز بسبب ألف تحدٍ، فقصيدته فيها أجمل معاني الدنيا، جرس حروفها موسيقى خالدة، وكلماتها مقدودة من جذوة الموهبة المقدسة، وموسيقى أنينها مسروقة من رحم الأحزان، هي ليست قصيدة فحسب، بل أرجوزة البشرية الخالدة، وترنيمة التمنّيات، هي خلاصة السحر، ومآل الكلمات، هي الكمال بعينه، ولكن ينقصها شيء صغير، تُنقصها أن تنقل من فكره إلى سطور الورق، وهذه هي المرحلة الأصعب، وهي المرحلة التي يكابدها منذ سنوات، فهو مسجونٌ بين الكلمة وظلّها.

كم هي متعسّرة عملية مخاض قصيدته الأسطورة تقيّأ آلاف

الكلمات، ولكن لم يتقيّأها، دهن نفسه بمسك الأمنيات، ولكن لم يقبض عليها، صمتْ ألف عام، وتصوّف في محراب غسقها، ولكنّها ما أطاعته، فخلع عقله، وجلس عليه، وكتبْ قصيدته المشتهاة، إذ إنّ العقل لا يتسّع لولادة قصيدة أسطورة... ولكن الجنون يتسّع لأكثر من ذلك...

(٨)

فقدان توازن

كان متأكداً وهو في مستشفى المدنية للأمراض العصبية والنفسية من أنّه على جادة العقل، وأنّ من حوله من النزلاء عقلاء، لذلك فقد خلد زمناً طويلاً في مختلاه الإجباري، لكنّه منذ أن خرج من المستشفى وهو يشعر بأنّه مجنون بين مجانين، وهنا يكمن الداء الذي يفقده توازنه تماماً.

فإن كان العم جبر المجاهد العتيد مجنوناً، وإن كان فضل معلم الرياضيات المخلص مجنوناً، وإن كان زكي الذي رفض أن يسرق مال الفقراء مجنوناً، فكيف نعدّ فخامته المتاجر بأرواح الأبرياء عاقلاً؟! وكيف نعدّ معاليه تاجر المخدرات عاقلاً؟! وكيف نعدّ عطوفته القوّاد عاقلاً؟! وكيف نعدّ هدى التي نسي ماذا فعلت بالضبط عاقلة؟!

فكّر طويلاً، وابتسم ابتسامة خضراء صفراء وربما حمراء، إذ أدرك

أنّ المجانين في كلّ مكان، وأنّ الأسوار إنّما تحدّد الإقامات الإجبارية للمجانين داخل الأسوار أو خارجها، شعر بغثيان مُداهم، وألقى بجسده المضني من فوق شاهق منحدر، وكان ضحية محزنة للحظة فقدان توازن.

(٩)

الحالة المرضية رقم (١٠٠)

استغرق بحثه الأخير سنوات ليشرف على نهايته، استعرض حالات كثيرة لأناس ضمّهم الجنون إلى حظيرته الجهنمية، كوّن فرضياتٍ مثيرة حول أسباب الجنون، وسجّلها وَفْقَ حالات وأمثلة ومجموعات، وكانت الحالة المرضية رقم (٩٩) هي حالته المرضية الأخيرة في الدراسة.

عرف كلّ أبواب الجنون، وحفظ عن ظهر قلب كلّ المسالك المؤدية إليه، لكنّه لم يعرف درباً واحداً للخروج من أرض الجنون، فكّر طويلاً وطويلاً، ولكن دون أن يهتدي إلى ذلك الباب السحري، أمسك قلمه، ورسم على الحائط باباً، ولّما أعياه اختراقه غضب بشدّة، وزمجر وثار وتوعّد، وأُغمي عليه، ولم يستيقظ من غيبوبته حتى الآن، وباتتْ الحالة المرضية رقم (١٠٠) هي الأصعب علاجاً.

(١٠)

سفر الجنون[*]

انطلق الرحّالة العالم الفيزيائي الزراعي الجغرافي السياسي الفلكي الموسيقي الطبيب..... [١] في عام...... [٢] ضوئي؛ ليجمع مادة لسِفْره العظيم المسمّى "ضرب الفنون في مسالك الجنون". طوّف على كلّ الدنيا، وعرّج على بعض المجرّات المجهولة، وجمع مادته المنشودة بمشقّة وعناء بعد أن مزّق شبابه في ذلك، وأوهى عظامه وإرادته في سبيل مهمته الفريدة، ثم شرع يحبّر مادته المجموعة على رقائق الكاغد بماء الذهب، وما كاد ينتهي من تحبير سِفْره العظيم حتى........[٣] أو ....[٤] لكنّ المؤكّد أنّه أعدم سِفْره بطريقة مجهولة بسبب حالة جنون مفاجئة ألّمتْ به.

---

[*] نقلاً عن المخطوطة الوحيدة والمفقودة وشبه التالفة.

(١) المخطوطة مخروقة في هذا الوضع.

(٢) لا يمكن قراءة المكتوب في هذا الموضوع من المخطوطة.

(٣) كلمة غير واضحة.

(٤) المخطوطة مخروقة في هذا الموضوع.

مآتم الرصاص

"مآتم للروح هي مآتم الرصاص عندما تُردي أحبتنا أمواتاً في لحظات الفرح والحياة".

المأتم الأوّل

رسالة عاجلة... [١]

عزيزي الدكتور جورج آرثر:

تحياتي لك:

لعلّ رسالتي هذه ستدهشك، وأخال أنّك لا تتوقّعها، فأنا لا أكتب هذه الرسالة المستعجلة كي نتناقش في إحدى تلك القضايا العالقة التي اعتدنا على أن نتشاجر بسببها، ولا كي أسمع تعليقاتك حول الوضع الراهن في الشرق الأوسط ، ولا كي أسمع نكاتك الباهتة عن الذين يموتون جوعاً في الصومال ، أو عن الذين يهلكون

---

(١) حدث في بيتنا.

في صحارى الحروب، كذلك لا يعنيني أن أعرف تفاصيل آخر مغامراتك العاطفيّة، إنّما أُرسل إليك هذه الرسالة؛ لأنّك تبجّحتَ في الماضي كثيراً قائلاً: "لا مستحيل تحت الشمس، ولا مستحيل في الطبّ"، ولأنّك صديقي العزيز، الذي أسرني بطيبته وبكرمه وبرقّته التي جعلته يحزن طويلاً على كلبه الذي قتله بالخطأ بعيار ناري في رحلة صيد، فأقسم من يومها على أن لا يحمل سلاحاً إلاّ لحرب، وأن لا يقرن متعة بموت يورثه وخزات ضمير تهمزه دون رحمة.

عزيزي جورج:

قلتَ دائماً: "إنّ لا مستحيل في الطبّ"، ولطالما تحمّستْ لآرائك، وقدّرتُ فيك الطبيب المجتهد، وقد يكون حبّ مساعدة الآخرين، وتخفيف آلامهم هو ما جمعني بك، لا المهنة ولا سنين الدراسة الطويلة، وها أنا ذا اليوم أقول لك بهزيمة نكراء: "إنّ هناك مستحيل حتى في الطبّ".

لا تغضب يا عزيزي، ولا تتسّرع في تحضير ردّ على كلامي قبل أن تتمّ قراءة باقي خطابي ، لعلّك عندها تؤمن بصدق ما أقول، فتعرف أنّ كلّ الطبّ ، وكلّ مهارة الأطباء عجزتْ وستعجز عن ردّ عين فيصل، أنت لا تعرف فيصلاً، وقد لا تبالي بعينه المطعونة إلاّ بمقدار مبالاتك بحالته الطبّية، لكنّني أريد أن أحدّثك عن فيصل، ولأّنك صديقي عليك أن تعرف فيصلاً؛ كي تعرفني بشكل أكبر، أنا

لم أحدّثك من قبل عنه، لكنّني سأحدّثك عنه مفصّلاً في هذه الرسالة.

فيصل طفل عذب، عمره ثلاثة عشر عاماً، هو سليل العزّ والمجد والغنى، ولكنّه كذلك سليل العجز والضعف والإعاقة. وُلد فيصل بعينٍ واحدةٍ ترى النّور، أمّا العين الأخرى، فكانتْ زينة خضراء جميلة، يسكنها الظلامٌ، ولا تعرف النّور. أدركتْ أمّه بفطرتها التي أملتْ عليها أن تراقب نمو ابنها أنّ فيصلاً يعاني من مشكلة ما في إحدى عينيه، فعرضه أبوه على أطباء الأردن، وعلى الكثير من أطباء العيون في العالم، لكنّهم عجزوا عن ردّ قبس النّور المسلوب إلى عين فيصل. وعاد الأب كسيفاً إلى بلده، يحمل فيصلاً ذا العين الخضراء المظلمة.

لكنّ الله أهدى فيصلاً هدية سحرّية خلاّبة، فأنساه بها آلام عينه المظلمة. فقد كان فيصل رسّاماً ملهماً، ترى عينه اليتيمة ما لا تراه عيون آلاف البشر، فتُصوّر ما ترى، وتحذق ما تصوّر، فتنطق ألوانه بالعجائب، وتكاد تُبعث الروح والحياة فيما يرسم، فيصل كان فنّاناً مدهشاً، عاهد عينه اليتيمة على أن يمتّعها بالنظر والرّسم، فبرّ بعهده، وملأ نفسه سعادة، وأسعد والده الحزين وأمّه التي لطالما تمنّت أن تهبه إحدى عينيها؛ لتضيء ظلمة عينه الخضراء، بل وأسعدني أنا بالذات.

أتذكر تلك اللوحة التي تحتضن خيلاً عربية تجري في الصحراء،

فتكاد تسمع وقع سنابكها، ورفيف لهاثها العذب، التي كانت لوحتي ولوحتك المفضّلة، وقد صمّمتُ على إعادتها معي إلى الأردن على الرغم من رغبتك بالاحتفاظ بها، فيصل كان قد رسمها، ذلك الطفل العذب، الذي لم أحدّثك يوماً عنه؛ فأنت لا تسأل، وأنا لا أقدّم معلومات بالمجان.

الرسم كان متعة فيصل الوحيدة، لم يحذق غيرها في الحياة، ولم يحبّ غيرها، فقد قامتْ بينه وبين ألوانه حميمية غريبة، وكان مرسمه المُزوّد بأفضل أنواع القماش والألوان معبده المقدّس، في حين انقطع أترابه للعب والمشاكسة. كان يريد أن يكون أصغر فنان يقيم معرضاً للوحاته، وكان والده على استعداد لأن يشتري له قصراً ليعرضَ فيه لوحاته، مقابل أن يرى في عينيه بارقة سعادة أو رضى، لكنّ فيصلاً كان مصمماً على أن تُعرض لوحاته في معرض صغير في العاصمة. وكاد حلم فيصل يتحقّق، ولكنّه سرعان ما غدا هباءً منثوراً! أتعرف لماذا؟؟؟

لأنّ فيصلاً ما عاد قادراً على الرسم، لم يمت كما قد تتوقّع، وليته مات، إذن لوضع القدر حدّاً لمأساته، ولكنّه أُصيب بالعمى، لقد سرقتْ رصاصة طائشة عين فيصل الوحيدة، أخطأتْ العين المظلمة، وصممّتْ على التهام عينه السليمة، لم ترضَ أن تستقرّ إلاّ في ظلام عينه التي كانت مبصرة قبل لحظات، فشربتْ من زلالها حتى ارتوتْ دماً.

وأصبح فيصل أعمى!!!! لم تأته الرصاصة من يد عدو، ولا داهمته في حرب ظالمة، ولكنّها أتته من يد أبيه، وفي حفل زفاف أخيه الكبير والوحيد، فخُضّبَ أبيض الزفاف بأحمر دماء فيصل، وكانت عينه الوحيدة قربان ذلك العرس الدامي، وكأنّ الفرح لا يكتمل إلاّ إذا أُريقتْ فيه دماء الأبرياء.

كان فيصل ليلتها يراقب العرس، ويحاول أن يحفظ فعالياته وطقوسه؛ ليرسمها في لوحة يزمع أن يهديها فيما بعد لأخيه العريس، لكنّ رصاصة من المسدس الذي يحمله والده قد أهدرتْ أحلام فيصل، وسفكتْ مع دمائه المهدورة سعادة أسرة كاملة، وأسلمته مجبراً للعمى، فهجر مرسمه دون رجعة.

لا تحزن يا جورج، فأنا أريد منك بدلاً من ذلك أن تتحدّى المستحيل كما تقول، وأن تعيد بطبّك عين فيصل، نعم أنا أتحداك أن تفعل ذلك، لابدّ أنّك تنكّس الآن رأسك عاجزاً، وتبرم شفتيك القرمزيتين، وتقول بلكنتك المتعالية بعض الشيء: "أنتم شعب متخلّف!!".

لن تغضبني كلماتك، ولن أهبّ أردّ الاتهام بحجج ومبررات واهية، فمن يعبّر عن سعادته بإطلاق العيارات النارية، وبإهدار دم الأبرياء هو دون شكّ متخلّفٌ ، ويستحقّ الموت ، لذلك فقد حزن والد فيصل حزناً عظيماً، وحبس نفسه قي غرفته، حتى قضى حزناً ، فمات نادماً منكوداً. وأنت تعرف يا صديقي معنى ألم الضمير ، فقد

حزنتَ طويلاً على كلبٍ أرديته قتيلاً في رحلة صيد دون قصد، فما بالك بمن يردي ابناً أو أخاً أو صديقاً بسلاحه العابث؟

عزيزي جورج:

صدّقني.. هناك مستحيل في الطبّ، لذلك من المستحيل أن تقدر على ردّ عين فيصل، أو على ردّ والده إلى الحياة، أو على أن توقف أحزاني على أخي ووالدي، ففيصل كان أخي الصغير، ووالده كان والدي، الذي لطالما حدّثتك عن عجيب حبّه وحنانه. أنا لم أعد قادراً على مزاولة مهنة الطبّ منذ تلك الليلة المشؤومة، التي عجزتُ فيها عن ردّ عين فيصل إلى مكانها، لكنّني أعمل الآن في جمعية وطنية لمكافحة إطلاق العيارات الناريّة، وشعاري دائماً: "اوقفوا استعمال إطلاق العيارات الناريّة في المناسبات؛ لأنّ من المستحيل أن نعوّض ما نفقد بسببها".

عزيزي جورج:

عندي رغبة حقيقية في البكاء... لكنّني أخجل من الاستسلام لهذه الرغبة الملحّة.

لا تنساني يا صديقي العزيز من دعائك، فهو عزاء المنكوبين.

ولك عميق حبي.

أخوك: سالم

المأتم الثاني

حليمة المجنونة[1]

يقولون: "الغرباء يرون بأعين نافذة"، ولكنّني لست غريباً، ولكنّني قضيتُ زمناً طويلاً في بلاد الصقيع والبرد أشرئبّ للدفء وللعلم، وأحلم بالعودة إلى قرية تنام بين أحضان الزيتون والبلوط، وتحلم دائماً بالأفراح وبمواسم جني الثمار وبالزواج وبمآدب الطعام وبالأهازيج وبالدّبكات، وتحتال على الزمن لتسرق السعادة منه في لحظات اللقاء، وتنثر الملح في عيوُن الحاسدين والغرباء، وتستقبل الآتي بالزغاريد. لكنّها قرية تنسى كلّ الحكايا، تنسى حكايا البائسين والهاربين والمظلومين، وتنسى كذلك حكاية حليمة المجنونة، وتبتلع كلّ ماضيها، فتحليها إلى أسطورة عرجاء، تتصيّدُ الأفراح والولائم، تأكلُ منها بنهم، وعلى عجل، وترقصُ فيها كيفما اتفق، فتثيُر ضحكَ النساء، وصخبَ الأطفال، تصفّقُ بعتهٍ بفردتي الحذاء اللتين تربطهما إلى بعض منذ سنوات حول رقبتها بخيط قنبٍ شبه بالٍ.

كم لهوتُ في الماضي مع أطفال القرية بأحزان تلك المرأة الكسيرة!! كم طربنا إلى بكائها وجنونهاّ !! وهي تطاردنا من حي إلى آخر، ومن ربوة إلى أخرى؛ لنردّ إليها الحذاء الصغير الذي تلفّ خيطه

---

(١) حدث في قريتنا.

حول رقبتها، فنردّه إليها بعد أن ننهكها بكاءً وركضاً، وتنهكنا ضحكاً وتسلية، ما بالينا يوماً بأحزان حليمة، ولا سألنا يوماً من تكون حليمة المجنونة، فقد كنّا نظنّ – لجهلنا – أنّ المجانين دون حكايات أو ماضي أو أحزان، فقط هم بدموع وبطقوس عتهٍ.

لكنّني اليوم أعرف من هي حليمة، وأعرف أنّ حليمة لم تكن مجنونة، بل كانت أم سعد لعشرين عام من الزواج، قبل أن يجود القدر بسعد، فيأتي وليد العجز والشيخوخة وسنوات الانتظار...

عينا حليمة الغائرتان في صفحة وجهها الذي لوّحته الشمس، وجلده حزن دفين، كانتا أوّل صيحة هزأتْ بأفراحي في القرية، كما هزأتْ بأفراح أهلي وبزغاريدهم التي كلّلتها طلقات ناريّة لعينة، تستقبل السعادة بالموت ، جاءتْ حليمة كعادتها في حمّى من الجنون والصراخ والزغاريد ، وسرعان ما انقضّتْ على ابن خالي الذي تمترس وراء سلاحه الصدأ، يعبّر به عن فرحه بطريقة تذكرني برجال الغابات الأوائل ، وبطقوس الدم والتضحية البدائية ، طفقتْ حليمة تعضّه بجنون، وتصفعه بفردتي حذائها الصغير ذي السّر الدفين ، وكاد الأولاد يشرعون بطقوسهم اليومية في إزعاج حليمة ، لكن يديّ امتدتا دون إرادة مني إلى جسد حليمة الصغير، وجذبتاه بحنان، لأوّل مرّة تحزنني دموع حليمة ، وتستفزني أحزانها، أنهرُ الصغار بشدة، فيبتعدون عنها، أعدّل من هندامها الأزرق الداكن الذي احتلّتْ الأوساخ والمِزق جلّ نسيجه ، أمسّد على رأسها ، وأجلسها

بالقرب من زهور الريحان، التي تعتني بها جدتي منذ زمن طويل، وأطلب لها الماء والطعام، وأشرع أراقبها تأكل بهناءة عجيبة، وبانكسار محزن...

حليمة المجنونة كما وفقاً لما جدتي كانت جميلة القرية، وسيدة النساء بالعقل والخلق والاتزان، انتظرتْ سعد عشرين عاماً بلا كلل أو تعب، طوّفتْ على القبور والأضرحة والمشعوذين والأطباء، تضرّعتْ إلى الله طويلاً كي يأتي سعد الذي تتكنّى باسمه منذ دهر، فتتجرّع الحرمان والألم كلما صكّ اسمه أذنيها المشنفتين بشوق لكلمة ماما.

وجاء سعد بين غفلة التمنّي وشهوة الانتظار ومفاجأة القدر، وأبدل الحزن سعادة، وغدتْ أم سعد تطرب لكنيتها، وتختال بفخر بسعد ذي العينين العسجدتين المكحّلتين بالإثمد، والمطوّق بالرّقى والحجابات وقطع الذهب المحلاّة باللون الأزرق؛ لتردّ عنه العين والحسد. واشترى أبو سعد الذي يستعجل اللحظات، ويحثّ الساعات لتمضي سريعاً، فيرى سعداً رجلاً يرافقه في الزيارات، ويشاركه حضور الأفراح والأتراح، حذاءً صغيراً لسعد كي يكون حذاءه الأوّل، كان حذاءً طفولياً صغيراً، عليه قلوبٌ حمراء، وضفادع صغيرة.

وإن كانت أم سعد قد زهدتْ بهذا الحذاء ، فما كانت تريد أن يفارقها سعد ، وقلّما خرجتْ من البيت ضنّاً به على المرض أو الإرهاق ، ولزمتْ البيت معه سعيدة راضية ، لكن معتكفها ما كان

ليعصم ابنها سعد من الموت، فقد تسلّلت رصاصة غادرة في حُمّى عرس، أطلقها أرعن بلا حذر ليكرّس بصورة وحشية طقوس موروثة للأفراح، فتحوّل العرس إلى مأتم، واغتال فرحة أم سعد، فرصاصته الغادرة أبت إلاّ أن تُحرق قلب أمّ أضناها الانتظار، إذ انسلّت بدوي مخيف، واخترقت مهد سعد الذي يركن إلى نافذة قريبة من ساحة العرس، ويسدر في نوم لذيذ، مزّق ألم مفاجئ صدره، فندتْ عنه صرخة صغيرة وجلى، سرعان ما كتمها الموت، وأخرس احتجاجها.

ومات سعد، اغتالته فرحةٌ مجنونة برصاصة آثمة، وركن إلى قبر صغير ابتلع جسده، كما ابتلع سعادة والديه، وعقل أمّه التي ما اتسع لها العقل، ففرّتْ بحزنها إلى الجنون، وغدتْ حليمة المجنونة، التي تربط حذاء سعد الذي تيتم سريعاً حول رقبتها، وتطوّف به على العرصات والأحياء، تبحث عن سعد، وتتبع بكاءه الذي لا يعرف نهاية.

آه يا هاجر لست مجنونة!! بل مطعونة في قلبك وأمومتك، أمّا الجنون فهو الوصف الذي يلائم يداً تعبّر عن سعادتها بالرصاص وبالموت. أما آن لأحزانك أن تُجهض؟ وللرصاص أن يُعدّم، فتحلّ السعادة والزغاريد مكان دويّ الرصاص، ودفق الدماء المهدورة، والأرواح المزهقة.

من جديد تلمح عينيّ يديّ ابن خالي تمتدّان بخرفٍ نحو المسدس، ليعبّر عن سعادته وفخره برصاصاته الملعونة ، غضب أحمر

يجتاح نفسي، آهات سعدٍ تداهم روحي، انقضّ عليه دون وعي، أضربه كيفما اتفق، وحليمة المجنونة تزغرد باضطراب، فهي الوحيدة التي فهمتْ ما عجز الآخرون عن فهمه.

يجتمع بعض الأقارب، ويبعدونني بالقوة عن ابن خالي، الذي كدتُ أهصره بلكماتي المتشنّجة. تحوقل جدتي، وتضرب أمي كفاً بكفّ، وهي تقول: "أصابته والله عين، أو أصابه جنون حليمة". لكنّني أصرخ بلهاث يكاد يدمي صوتي قائلاً: "هذا هو الجنون بعينه، إطلاق العيارات النارية هو الجنون، توقّفوا عن القتل بدعوى الفرح... توقفوا...".

تصمتُ العيون... وفي البعيد ألمح حليمة المجنونة تزغرد مذبوحة، وهي تطارد عين الشمس التي تتهيّأ للأفول، وتجتهد كي تجد سعداً قبل أن يخيّم الظلام، فسعد يخشى من الظلام؛ لأنّه طفل صغير، والأطفال الصغار يخشون الظلام والرصاصات الطائشة.

المأتم الثالث

حالة خاصة[1]

كم حاولتُ أن أُفهم القاضي والمحامي الخاص بي أنّ حالتي حالة خاصة!! ولكنّ أحداً منهما لم يفهم، وكاد ذلك القاضي الأحمق المأسور لسطور قانونه أن يرسلني إلى مستشفى الأمراض العقلية، فقط لأنّه لم يفهم معنى حالة خاصة، ولذلك فقد أرسلني إلى حبل المشنقة.

أليس هناك حالة خاصة في الأعراف الدولية؟ أو في القوانين الوضعية؟ أو في الأحكام الفقهية؟ فضلاً عن قانون العقوبات والجنايات الكبرى؟ فلماذا إذن لا يقدّرون ملابسات جريمتي؟ ويعدّونها حالة خاصة؟ فيطلقون سراحي أو حتى يخفّفوا الحكم الجائر الصادر بحقي؟ أنا لا أخشى الموت، ولا أخشى كذلك حبل المشنقة، ليس لأنّني شجاع، أو صالح أو حتى عبثي أو وجودي، بل فقط لأنّني ميت من قبل أن يعدموني، لذلك فمن السخف أن يخشى ميتٌ الموت، أيخشى الغريق من البلل؟ أتخشى الطيور من الارتفاعات؟ طبعاً لا. إذن من الطبيعي أن لا أخشى الموت، لكنني أخجل من دمعة أمي، وأشفق عليها من التصدّع حزناً، كما أشفق عليها من أن تفقد ابنين في عام واحد.

---

(١) حدث في المعمورة.

قد يقول قائل إنّني قد ساهمتُ في آلامها، وفرّطتُ بنفسي بدل أن أحافظ عليها من أجل رعاية أمي الثكلى، وهذا صحيح بمنطق الفلاسفة ورجال الشرطة والقضاة، لكنّه غير صحيح بمنطق القلب والدم والعِشْرة.

طوال تسعة شهور كنّا في رحم واحد، فجبر لم يكن أخي التوأم فقط، بل كان روحي وقلبي وصورتي التي تسير أمامي ليل نهار، ما كان للحياة طعم دونه، لا يكاد أحدٌ يميّز أحدنا عن الآخر، فنحن توأمان متشابهان، حتى أمي ما كانت لتميّز بيننا، ولعلّها حتى الآن لا تستطيع أن تجزم تماماً من هو الذي مات؟ أهو كايد أم جاسر؟

وقد وقع في نفسي منذ طفولتنا أنّني إيّاه، وأنّه إيّاي، كلّ ذكرياتنا واحدة، أصدقاؤنا مشتركون، حتى المرأة التي عشقتُ قد وقع هو الآخر في عشقها، وعندما صمّمتُ على أن أؤثره على نفسي، وأتنحّى بعيداً، لكي يسعد بمن يحبّ، كان هو الآخر قد أخذ القرار نفسه، وانسحب كذلك من حياة تلك العاشقة البائسة، التي خسرتْ في لحظة واحدة عاشقين؛ فقط لأنّ العاشقين أخوان متحابان للغاية.

كم فرحتُ عندما قرّر كايد أن يتزوّج سلمى ، زميلتنا في الدراسة الجامعية !!! فهي تناسبه تماماً بدماثة خلقها ، وبرقة مشاعرها ، أمّا أنا فتناسبني امرأة حديدية ، مثل خديجة ابنة عمي صفوان، التي كنتُ أنوي أن أخطبها بعد زفاف أخي التوأم كايد . لكنّ الأفراح والسعادة

المؤجّلة باتتْ ملغاة، بسبب رصاصة ثمنها عشرة قروش، وحجمها أصغر بكثير من أصبع اليد، فقد قلبتْ تلك الرصاصة حياتي رأساً على عقب، ودمّرتْ سعادة أسرة بأسرها. تلك الرصاصة التي أطلقتها يدٌ مستهترة، أرادتْ أن تعبّر بها عن سعادة، ولكن بطريقة شاذة، تلك اليد كانت يد جارنا عمران، الذي يمتّ بصلة قرابة لأمي الحبيبة، ويسمّيها تأدّباً: "خالتي".

يده كانت قوية وثابتة، لكنّ القدر أوهاها في تلك الليلة المشؤومة، فأطلقتْ رصاصة، استقرّتْ للتو في قلب كايد، الذي لم يذق طعم السعادة بعد، ففارق الحياة ودهشة مذبوحة تعلو محيّاه، دون أن يودّعني ولو بكلمة واحدة، أو يوصيني خيراً بأحبّته.

كم كرهتُ السّلاح والموت!!! وقاطعتُ أنا وأخي كايد أيّ عرس يُسمح فيه بإطلاق العيارات النارية، فما يليق بنا نحن المثقفين،كما لا يليق بأيّ مواطن صالح أن نرضى بسلوك لا أعدّه إلاّ همجياً. لكنّ عمران فاجأنا برصاصته التي كانت حجراً سُحب من بناء عظيم، فدكّه على أهله. أين المعقول في سلوك كهذا لأكون عاقلاً؟! أنا ضد الموت والثأر، ولكنّني ما كنتُ لأطيق أن أرى ولو للحظات أنّ قاتل أخي يتحسّس هواء الحياة، وأخي يأوي إلى رمس مظلم. نعم لقد قتلتُ عمران بدم بارد، وبرصاصة واحدة فتّتتُ جمجمته، فما كنتُ أطيق أن أصيب قلبه، فالقلوب عندي جداً.

لقد حُكم علي بالإعدام؛ لأنّني قتلتُ مع سبق الإصرار

والترصّد، والحقيقة أنا لا أبالي أبداً بهذا الإعدام، فقد متُ لحظة مقتل أخي، فالرصاصة التي أصابتْ قلبه قد أدمتْ قلبي كذلك،كم هو تقليد عابث وسخيف تقليد إطلاق العيارات النارية في الأعراس!!! فالسلاح خُلق للموت وللأعداء لا للأفراح ولصدور الأحبّة والأقرباء... حسناً، ليعدمني القاضي، ولكن عليه أن يعدم كذلك عادة إطلاق العيارات النارية في المناسبات؛ ليرتاح كايد في قبره، ولتقرّ عيون الأمهات، ولتجفّ دمعة أمي الحبيبة...

أمي الحبيبة...

ليتك تسمعيني الآن.. أفٍ لجدران السجن التي تخنق الزفرات والنداءات، ليتك يا أمي تسمعيني الآن لتسامحيني، ولتوسّدي رأسي بيديك الطاهرتين في قبري، أريد أن تدفنيني في قبر كايد، أريد أن يجمعنا قبر واحد،كما جمعنا رحم واحد، وليتك تكتبين على قبري بدموع عينيك: "هنا يرقد نجلاي: كايد وجاسر، اللذان قضيا ضحية العيارات الناريّة، وضحية الجهل".

أمي... هل تسمعيني؟؟؟

أنا خائف... خائف للغاية...

في القدس لا تُشرق الشمس

كم تمنّى أن يغرق عينيه في وهجها الأسطوري!! وكاد يتمنّى أن يتفرّس في قسماتها السماوية، وأن يستلقي أرضاً على ظهره، وينبطح قبالتها تماماً، ويسلم نفسه إلى دفئها، فتشتمله الشمس كما تشمل باقي البشر دون الخوف من رصاصة غادرة أو هراوة ظالمة، ودون حصار أو حظر تجوّل، أو عيون غرباء... أكثير على المرء أن يتمنّى الاستلقاء قُبالة عين الشمس بسلام وهناء دون خوف؟!!.

كان يبحث عنها في السماء، ويتمنّى لو أنّ شعاعها يداعب هدبيه الصغيرين، ولو أنّ أديمها السرمدي يسكن باحتراق في عميق عينيه، ويرسو في بحيرتيهما إجلالاً لطفولته المسروقة، وأمنياته المؤجّلة.

في الأرض ، وبالتحديد حوله في مدينة القدس يسكن العدو والحصار والموت الأسود والظلّ ، أمّا في السماء فكان البحث عن أمنية ضائعة تسمّى الشمس ، أجال نظرةً عجلى في المكان ، ومن جديد عاد يبحث عن الشمس بحثاً طويلاً دون فائدة ، فقد تلاشتْ منذ زمن

مخلّفة الظل الأسود حيث يرتع العدو الذي يسحقهم، تمتم بخيبة توازي آلام طفولته المصلوبة على باب القرن العشرين، وعلى مرأى من الإنسانية، وقال في نفسه: "في القدس لا تُشرق الشمس".

صوت اللهاث تطارده الأحذية الجلدية ودوي الرصاصات يترعانه من دنياه الشمسية، ويعيدانه إلى أرض القدس، كان الجنود يطاردون بعض صبية حيّة، عرفهم جميعاً، كانوا نوارس صغيرة تطاردها الوحوش، أخذ يهتف معهم: "الله أكبر... خيبر... خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، وأخذ يرشقهم ببعض الحجارة، وولّى مع الصبية نحو البعيد، اختبأ في إحدى الزقاق مع صديق له من الصف الخامس اسمه أحمد، هو يكبره بعام، لكنّه يعرفه جيداً، كان يصلي معه الفجر في المسجد الأقصى بحضرة المعلم رفيق، ولكن كان ذلك في الماضي، قبل أن يرحل معلمهم الطيب دون عودة، وقبل أن يعلو جدار الفصل، فيغلق الدروب دون المسجد.

الحائط اللعين يتمطّى بظله، فيغرق القدس في الظلام، ويحجب ضوء الشمس، ويرسل المدينة شطرين حزينين، فقد كان جداراً مرتفعاً لا يعرف الرحمة، تمتصّ جنباته الإسمنتية الصرخات والاشتياق، وتبتلعها إلى الأبد...

كان محيي الدين الباحث عن الشمس الأسطورية أقصر بقليل مما هو عليه الآن عندما بدأ العدو ببناء هذا الجدار العاتي ، وسريعاً ما أصبح محي الدين أطول بقليل مما كان عليه ، ولكن الجدار كان أسرع

منه نمواً، وأشد منه فتكاً، فغدا كغارب يشقّ السماء، فمنذ أن ربض هذا الوحش الإسمنتي في قلب المدينة قد حجب الشمس، وأغرق المدينة في الظلام، ومن يومها بات هاجس محي الدين أن يجد الشمس المنتظرة التي رحلت بانكسار بسبب الجدار.

كان يريد أن يجدها إكراماً لآلاف الصور والأفكار الممتدّة بتمطٍ في ذاكرته الصغيرة، المسيجة ببراءتها وبلون الدم، أراد بالتحديد أن يجدها إكراماً لذكرى معلمه رفيق الذي علّمه الصلاة وهو ما يزال في الصف الأول، يومها قال له ولزملائه في الصّف ودفء الإيمان يعلو قسماته السمراء: "يا أبنائي !الشمس عادلة تغمر الجميع بنورها، ولا يحجبها ظلم".

ثم غابت الشمس، وغاب معها المعلم رفيق الذي يسكن القرآن صوته، وعاد بعد أيام مدثّراً بكفن أبيض، أمّه والجارات استقبلنه بالزغاريد، وقالوا: "جاء العريس". يومها شقّ جموع المشيعين، وحدّق في جسد معلمه المسجّى بطمأنينة، تفرّس في لحيته الرقيقة، وأراد أن يسأله عن الشمس الغائبة عن القدس، ولكن... الشمس لا تشرق بالقدس.

كان الجري والهروب من زاوية إلى أخرى من العدو الصهيوني مضنياً في مطاردة تبدو أسطورية ، وبلا نهاية أمام جنود لا يعرفون الرحمة ، كان يلتقط أنفاسه بصعوبة. وفي الزقاق كان الرفاق يتناوبون على الجهاد ، وعلى رشق العدو بالحجارة تارة ، كما يتناوبون على

الشهادة تارة أخرى. في كلّ مكان بحث عن الشمس وهو يركض، كانتْ سنينه العشر اليتيمة تركض معه، وياللعجب!! رأى شمساً منيرة تمتدّ لتكتسح البريق الآثم لآليات وسلاح العدو الذي يُشهر في وجوه الأطفال والنساء والشيوخ والعُزّل، رأى بريقاً يمتدّ ليضيء المقدسات، ليمحو الجدار، وليضع حداً لانتظار الأمهات الفلسطينيات إشفاقاً على آهاتهنّ، رأى شمساً تمتدّ كما طائر الفنيق، تشعل ناراً تطهّر المكان ولا تبيده، فتغرق المدينة في أسطورة طائر الفنيق الذي يُولد في النار ولا يحترق، بل يتجدّد ويتجدّد...كان في ركضه وهروبه، ثم في إقدامه وإصلاء العدو بحجارته كأنّما يفي بنذر مقدس مفاده زيارة أرجاء المدينة الغارقة في حزنها وفي قدسيتها.

في نظرة أحد الجنود الصهاينة رأى اشتهاءً قوياً لدمه، عيناه الزرقاوان الخرزيتان كانتا تلتهمانه بلا رحمة، رآه يقترب منه ومن الأصدقاء، كان جسداً صغيراً أعزل أمام دبابة مدرّعة، أطلق قدميه للريح المسمّمة بالغاز المسيل للدموع، ودلف سريعاً إلى الحارة القديمة، كانت روح الإسلام وعمر بن الخطاب وصلاح الدين والوليد بن عبد الملك وسليمان القانوني تسكنها، وذكرى الأصالة تفترعها، ولكن الشوارع المسمّاة بالعبرية والوجوه الغريبة التي كانت تطالعه من واجهات المحلات ذكّرته بلا رحمة بذلك الاحتلال الذي تفشّى حتى في أسماء الشوارع، واغتصب المحلات القديمة التي تنتشر على طول السوق القديم المرصوف بالحجارة القديمة.

واجهات محلات التحف الشرقية القديمة سرقتْ نظره للحظات، الكثير من التحف الخشبية كانت مصنوعة من جذوع أشجار الزيتون، تذكّر عمّه رزق الذي قطع العدو قدميه من كثرة تعذيبه في المعتقل، فأمضى حياته يصنع الأقدام الخشبية من أشجار الزيتون، وأقسم على أنّه سيستخدمها ليذهب سيراً للصلاة في المسجد الأقصى بعد تحريره، ولكنه مات قبل أن يبرّ بقسمه الدامي.

في البعيد القديم لاح بيته الغارق في ذاكرته، بيته الذي داهمه المستوطنون الإسرائيليون، وسكنوا الطابق العلوي منه، كم آلمه أنّهم احتلوا غرفته وغرفة أخيه نور الدين، ولكنّه حقد عليهم عندما ألقوا بتلك المادة الكاوية على فناء بيتهم، فأحرقتْ رقبة ابنة أخته الصغيرة، وأهدها بالإجبار تشويها يطوّق وجهها الجميل، ولا يفارقه أبداً، يومها تمنّى من كلّ قلبه أن تصلي الشمس وجوههم بالنار، لعلّها تطهّرهم من آثامهم، وتشفي قلبه المكلوم، وإن كانت لن تشفي ابنة أخته من حروقها.

الحارة القديمة التي ابتلع المستوطنون اليهود الكثير منها باتت هي الأخرى بلا شمس، ركض محي الدين خارجاً منها ، كان مشوقاً إلى الشمس ، وكانت الأرض تتباعد بين قدميه ، البيت بدا بعيداً ، والشمس أبعد ، أمّا الجدار الفاصل فكان في قبالته ، توقّف للحظات أمامه ، كان العدو يقترب منه، ثُلّة من الأصدقاء كانوا في الجوار يساندونه بحجارتهم الصغيرة ، تثاءبتْ سنونه العشر ، وتاقتْ بشوق الطفولة إلى النّور ، مآذن الأقصى تدعوه بآذانها العذب إلى الاقتراب،

وبدا له أنّ الجدار الفاصل أحقر من أن يوقفه، وبات العدو بكلّ جبروته وآلاته وموته أضعف من أن يسحق رغبة طفولته بالاقتراب من الجدار. خطا خطوة... اثنتين... ثلاث... أربع.... وركل بقدمه الصغيرة جزءاً من الحاجز الحديدي القائم على إحدى بوابات الجدار، وكاد يخطو خطوة خامسة نحو الباب، لكن الرصاصات سارعتْ إليه من كلّ صوب، تماسك، وحاول بجسده المثقل بالجروح والرصاصات أن يكمل خطوته، لكن المزيد من الرصاصات الآثمة سارعتْ إلى جسده، بسرعة شعاع الشمس جالتْ روحه في أرجاء القدس، ورفرفتْ بسعادة في جنبات القبة والمسجد الأقصى، ورآها تحوم بسعادة في كنيسة القيامة والقلعة وجبل الزيتون وطريق الآلام وجبل صهيون والنبي داود والصلاحية والمتحف وبئر الأرواح.

ومن ثم عادتْ روحه لتقبّل جسده قبلة الوداع، قَدَمٌ إسرائيلية ركلتْ وجهه المسجّى على الأرض، فكسرتْ فكه، لكنّه لم يبال، الكثير من دمه تنزّى في لحظات، رأى يديّ معلمه رفيق تمتدّان إليه لتقوداه إلى طريق النّور، الشمس تستطع في دنيا رفيق... أخيراً آن له أن يتمطّي قبالة عين الشمس، سمع دبيب زغاريد أمّه يتمطّى في البعيد، أغمض عينيه، وبصعوبة فتحهما من جديد، في السماء لم تكن هناك شمس، كان يعلم أنّها مسجونة خلف الجدار العازل... والجدار لن يمنع الشمس التي لم تُشرق بعد في القدس... وأسلم عينيه للنور.... وغاب.

القبّعة الزرقاء

القبعة الزرقاء التي طارت بعيداً في الهواء المشبّع برائحة الكبريت، والمشحون بحرارة الانفجار وبصوته، كانتْ آخر حركة رآها قبل أن يتزلق في غيبوبة دافئة لزجة دبقة تشعره بأنّه قد تبوّل في فراشه في ليلة صيف، لم يعجبه أبداً لون القبعة الأزرق الفاتح البهيج الذي يناسب الفتيات الجميلات أكثر مما يناسبه، ولطالما تمنّى أن يبدل بلون قبّعته أيّ لونٍ آخر إلاّ لونها الأزرق، وتساءل باستهزاء وفضول: "ما علاقة اللون الأزرق بهيئة الأمم المتحدة؟"، لكنّه ركن باستسلام إلى السائد، وقبل باللون الأزرق منذ أن تطوّع ضمن زمرة من جنود الوطن، ليشارك في قوات هيئة الأمم المتحدة للسلام في هذا المكان النائي من أفريقيا، الذي ما كان يعرف بوجوده أصلاً، وترك أمّه المرأة العجوز الدافئة تتلعثم طويلاً باسم المكان الذي قصده إلى أن تهتدي إلى أقرب لفظ يشبهه عندما تتفاخر أمام الجارات والقريبات والصديقات بابنها حميد عضو قوات هيئة الأمم المتحدة للسلام.

جاء إلى هذا المكان بالطائرة التي ما فتئ يقرأ المعوذات ودعاء السفر ليتصدّى لرهبتها، ولينسى أنّه على ارتفاع خرافي، ومن دون قصد وجد نفسه طوال طريق السفر، وقد كان سفراً طويلاً، يردّد الآية الكريمة التي ودّعه بها الشيخ مرزوق مشجعاً إيّاه على ما هو مقبل عليه، ومذكّراً إياه بأنّ ما هو في صدده هو امتحان صعب من الله، للمرة الخمسين ردّد بتلعثم وقلق: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربّهم، وأولئك هم المهتدون".

هو غير محافظ عن صلاته، لكن الإيمان يعمر قلبه، لذلك يعدّ نفسه في هذه اللحظات الحرجة بأن يلتزم بالصلاة لا سيما صلاة الفجر التي أوصته أمّه خيراً بها، وهو حافظ أمين لوصايا أمّه.

جاء إلى هذا المكان بعد أن اجتاز دورة تدريبية مكثّفة في اللغة وفي التعامل مع ضحايا الحرب، وللأمانة ما كان معنياً بحروب الآخرين، فحسبه تلك الحروب التي طحنت أمّته، وسرقت أجزاءً عزيزة منها، ولكن سياطاً من الخجل من النّفس ألهبتْ ذاته عندما وصل إلى ذلك المكان النائي، ليجد بقايا بشر وبقايا أماكن قد لاكتها الحرب، وأُعملتْ فيها آلة الخراب والدمار، كان يريد أن يحافظ على بذلته العسكرية الأنيقة، وإن كان زاهداً بقبعته الزرقاء، ولكنّه وجد كلّ ما جُبل عليه من شهامة ومروءة وما زرعه الجيش فيه من معاني

البطولة والإثار، وما ورثه كابراً عن كابر عن أمته من شجاعة طائر الفنيق ينتفض تحت ركام الموت، ويستعدي نفسه وجهوده، ليكون في عون أولئك الضحايا الذين انقطعت بهم السبل، وأرهقهم الخوف والحاجة، تلقّى الكثير من كتب الشكر والتقدير من إدارة مجموعته تقديراً لبطولته ولتعاونه، ولكنّه ما كان ليبالي بها، بل كان يبالي باختبار الله له، وبأولئك الأطفال الشيوخ والنساء من المحاصرين المعرّضين في أيّ لحظة للإبادة العرقية.

ساعد طويلاً في زرع الأسلاك الشائكة واللافتات التحذيرية حول الأماكن التي تزخر بالألغام الأرضية ، وما كان يظن أنّه سيجد نفسه في وسط إحدى تلك الحقول بمحض إرادته، للدقة بمحض إرادة القدر، فقد اندفع ذلك الطفل الإفريقي الصغير ذو الساقين النحيلتين والجسد العاري والابتسامة البيضاء خلف إوزة صغيرة داهمت حقل الألغام ، وما كان يستطيع أن يراه فتاتاً وأشلاء تتناثر في المكان ، على الرغم من أنّه كان يعلم تماماً ماذا يعني الدخول في حقل الألغام ، إلا أنّ قوة قاهرة دفعته إلى اللحاق بالصغير وبإوزته في مهمة مستحيلة لإنقاذهما ، لكنّ الموت كان أسرع ، فقد وطأتْ الإوزة لغماً ثار بها وبالصغير، فتطايرا أشلاءً في لحظات في حين طغى دفء عجيب على إدراكه ، واحتجبتْ الرؤية بعد أن حلّقتْ قبعته الزرقاء في البعيد ، لأوّل مرة يشعر باكتراث بمصيرها ، لم يعرف أين سقطتْ ؛ لأنّ الوجود غادر في تلك اللحظات ، وغار في ألم سكوني عجيب

ملك عليه كلّ مداركه قبل أن يفقد الإحساس بألمه.

لم يعرف إن كان ذلك النفق المتعرج ذو الألوان البهيجة سوف يقوده إلى الحياة الآخرة، وقد كان يحفظ قصصاً مخيفة روتها له جدّته آمنة عن حياة البرزخ، وعلى عجلٍ راح يحصي تلك الصلوات التي ضيّعها، وشعر بندم كبير على ذلك، ولاح في ذهنه كلمات مسرور البقّال الذي كان يمازحه كثيراً قائلاً: "أتاك الموت يا تارك الصلاة".

كان يسمع أصوات مجهولة، وجلبة غريبة بلغة عربية نادراً، وبلغة أجنبية في غالب الأحيان، وما كان يفهم منها شيئاً، لكنّه ميّز من كلّ تلك الجلبة صوت خشبي أجشّ حفظه من طفولته، وهو صوت عصا والده يتكئ عليها منذ أن دلف في عقده الخمسين حتى توفي قبل بضع سنوات، وكاد يتمنّى لو أنّ والده ذا الجسد الصغير، والقدم العرجاء والملامح البدوية الحادة يدركه في هذا المكان، فهو يشعر بخوف كبير في هذا النفق المجهول الذي لا يدرك كنهه.

لكن أمنيته الوحيدة في هذا النفق لم تصدف غفلة القدر، وبقي محبوساً في نفق سرمدي عجيب، وظلّ صوت عصا والده تصكّ الأرض برتابة يستطيع أن يعدّ معها خطوات القابض عليها يطغى على كلّ الأصوات، تخلّى بلحظة شجاعة عن كلّ شجاعته، ورفع عقيرته بكلّ خضوع الأطفال طالباً مساعدة ولده، وساد صمت، ثم سمع صوت والده بكلّ ما فيه من حزم وحنو، يقول له: "يا حميد، عار عليك ما تفعل، تماسك، أنت بطل، لا تكن طفلاً، أتسمعني؟

عليك أن تتماسك".

ومن جديد ساد الصمت، وغاب صوت قرعات عصا والده، تلك العصا التي استخدمها بعد أن كبر، ووهن، وما عاد يستطيع أن يحفظ توازنه بوجود قدم أقصر من أختها، فقد خُلقتْ ضامرة، تجبره على عرجٍ بادٍ جعل صغار الحي يلقّبونه نكاية به بــ(أبو عرّاج)، وبقي هذا اللقب يطارده على كرهٍ منه، إلى أن تطوّع للذهاب مع الجيش العربي هو وصديقه حسّان في معارك الدفاع عن الأراضي الفلسطينية ضد العصابات الصهيونية، وقتها استنكر الكلّ أن يشارك أعرج في حرب خطيرة، وسرعان ما تحوّل الاستنكار إلى شفقة، وبزمن أسرع تحوّلتْ الشفقة إلى جليل احترام وعظيم إكبار، وعاد والده من الحرب بقدمٍ عرجاء مقدسة لم تعرف القهقرى أمام الصهاينة، ولم يعد معه صديقه حسّان الذي دُفن هناك بعد أن استشهد في ساحة المعركة.

من ذلك اليوم ما عاد والده يُلقب بــ(أبي عرّاج) بل غدا يلقب بالبطل، ويسير بكلّ فخر يجرّ قدمه القصيرة، ويزهو بعرجه الذي اختال على أجساد قتلى العدو، ويتلقّى برضىً ربتْ الأكف على كتفيه.

وغدا هو ابن البطل، لطالما شعر بامتنان جنوني لوالده الذي ورّثه لقباً كهذا اللقب يفخر به باستمرار، ويقتنص المناسبات ليشير إليه، ويعتزّ به، لا سيما أنّه الفقير خامل الذكر الصغير المستضعف الذي ما كان يملك غير مجد والده البطل.

من جديد سمع صوت والده يقول بنبرة أشد حزماً:

"عليك أن تتماسك

هيا.. استيقظ..

أتسمعني يا حميد؟!

عليك أن تستيقظ؟!"

ما كان حميد ليعصي أوامر والده، ولو كانت أوامره ليست إلاّ همويمات شبح في نفق عجيب، استجمع حميد ضعفه، وفتح جفنيه بصعوبة، كان الأبيض أوّل ما لفح عينيه اللتين بحثتا بلهفة عن قبعته الزرقاء، وشعرتا بحزن إذ لم تكن موجودة، حسبه الأبيض يغرق المكان في رهبته الحزينة، يد الممرضة الإفريقية مسّدت بعطف على جبهته، سأل بضعف: "ماذا حدث للصبي الصغير ولإوزته؟" ردّت الممرضة برطنة لم يفهم منها شيئاً، وتابع رحلته بالبحث بعينيه عن قبعته الزرقاء في أنحاء الغرفة، ولكن لم يجدها.

وبعد مدّة توقف عن البحث عنها؛ لأنّه ما عاد في حاجة إليها، فقد غدا في حاجةٍ إلى عصا غليظة ليتكىء عليها؛ ليعود إلى وطنه بعد أن فقد قدمه اليسرى في الانفجار المريع الذي تعرّض له، ولكنّه كان يشعر بالفخر، بل بكلّ الفخر؛ لأنّ قدمه أُستشهدتْ في سبيل إنقاذ طفل وإوزته من لغم آثم، وأحسّ في ذاته بدبيب فخر، خمّن أنّه سوف يلازمه كلّ حياته؛ لأنّه كان يوماً من أصحاب القُبعات الزُرق.

أمينة

أمينة لم تكن امرأة استثنائية، ولكنّها كانت امرأة تجيد الخجل من نفسها؛ لذلك أدارتْ ظهرها للحائط، وبكتْ، في حين كان يمكنها أن تتبجّح بجمالها، وأن ترتقي تمثال شرف، ولأنّها رفضتْ أن تدنّس قدسية حجر، فقد غدتْ في ذاكرتي امرأة استثنائية، وإن كانت مهنتها القميئة تحتّم عليها أن تهب جسدها لكلّ شارٍ آثم، يدسّ في يديها المرتجفتين جنيهات قليلة، ويستبيح صلب روحها في جسدها الصغير البضّ.

أظنّ أنّها كانت تنحدر من أسرة طيبة ، لم ترث شرف المحتّد ، وعراقة النّسب ، لكنّها ورّثتْ أبناءها الكدّ المثابر ، والثقافة المتنوعة ، والنفس الذوّاقة للآداب والفنون ، اعتدنا على أن نراها في المعارض الفنية ناقدة رقيقة ، وذوّاقة ماهرة للألوان والحركات والوجلات ، ولم تعد زوجة زميلنا الرّسام التشكيلي الموهوب وحسب ، بل عضواً يجيد الرسم بالنظرة والكلمة والإحساس ، وإن كان لا يجيد الرسم بالفرشاة

والألوان، وحفظنا جميعاً اسمها، فقد كان اسمها السيدة (أمينة).

ولكن بعد موت زوجها الفنان في حادث مأساوي، غدا اسمها أمينة، ولا شيء غير أمينة، ولم تعد فنانة كلمة، ولا سيدة ذوّاقة، ولا حتى زوجة زميلنا الرّسام الموهوب، بل غدت امرأة تُشترى لياليها بالمال، بعد أن فشلتْ في أن تجد عملٍ يسدّ حاجتها وحاجة أطفالها الأربعة، وألحّ عليها صاحب البيت والبقّال والجزّار بدفع مستحقاتهم التي في ذمتها. لكنّها كانت تصرّ على أن يكون زبائنها من الرّسامين والمثقفين، لا من دهماء الشوارع، وزوّار الحانات والدور الحُمر.

ولبستْ الجلد الأسود المثير بدل الغلائل الرقيقة، وأبرزتْ صدرها الصغير الخجول، وأطلقتْ العنان لشعرها الأسود الطويل بعد أن صبغته بالأحمر القاني، فبدتْ كمهرةٍ جهنمية مثيرة، لكنّها بقيتْ أسيرة الألوان، تقف أمام اللوحات طويلاً، تتفرّس الخطوط والألوان، وتنحني مع الظلال، ثم تلتقط زبون الليلة.مرة قفزتْ إلى جسدي حمّة حيوانية جائعة، وفكّرت بأن التهم جزءاً من روح أمينة، أوصلتها إلى البيت ليلاً بعد حفلة صاخبة، وتحسّست محفظتي دون إرادة مني، فقد كنتُ أريد أن أشتري جسد أمينة، ولو لدقائق، لكنّ نظرتها الكسيرة جعلتْ رجولتي الشيطانية ترتدُّ عاجزة كسيفة، فمن هو الذي يستطيع أن يلوك دموع أمينة؟! أنا لا أستطيع، صمتتْ أمينة، وبكيتُ طويلاً؛ لأنني أخجل من دموع النساء الكسيرات، وأتعاطف بشكل خاص مع اسم أمينة.

بعد أيامٍ قابلتْ أمينة، كان ذلك في الليلة الأخيرة قبل افتتاح معرضي، كلّ شيء كان معدّاً، إلا تلك الصخرة الصغيرة التي لا يربو ارتفاعها عن متر واحد، كانت في حاجة إلى حركة ما، إلى روح ما، إلى حزن ما، تناوب الحاضرون من الأصدقاء وتلاميذي في قسم الفنون التشكيلية وبعض مُحبّي الفن والمتطفّلين على المكان على الوقوف عليها بأشكال استعراضية متفاوتة متباينة، نظرة الكبر والاستعلاء كانتْ القاسم المشترك بين وجوههم، خيلاء لئيمة سكنتْ قسماهم وعيوهم التي تستضيء بنور كشافٍ يُسلّط عليها، وتشرئب في داخل عيوهم نظرات الانقطاع عن العالم الذي يسمون عنه فقط بمسافة متر، فتسكب في أرواحهم معاني التوحّد والذاتية، فيختلّ جمال الحجر تحتهم، ويغدون في لحظات قطع صخر أخرى نصبتْ على صخرة، لا بشراً يقفون على صخرةْ.

ولكن ما هذا ما أردتْ، لم أرد نظرات استعلاء وتكبّر، وعيون تتبجّح، وقسمات يكسوها نور اصطناعي، بل أردتُ أحزان أمينة، التي وقفتْ أخيراً على الصخرة وقفة تجتهد لتكون استعراضية، ولكنّها تفشل في ذلك بعد أن دفعتها يديّ فنان مستهتر إلى الصخرة بعد أن ضغطتا بقوة على إليتيها الصغيرتين.

وقفتْ أمينة مرتبكة مضطربة ، برزتْ قسماها الحزينة في صفحة وجهها الذي غمر ضوء الكشّاف كسوفه وزرقة بشرته المنهكة ، صفّق الجميع لأمينة ، لكنّها انكمشتْ على نفسها ، وأدارتْ جسدها

للجميع، وانكفأتْ على الحائط، وشرعتْ تبكي بحرقة، فهي لم تشعر بالكبرياء وهي ترتقي صخرة، ويكسوها النّور، وتشرئب إليها الرؤوس والعيون، بل شعرتْ بأنّها عارية، فخجلتْ من عريّها، وبكتْ بشدّة؛ فأمينة لم تُخلق لتكون عارية...

هدية الإله(*)

قراءة في مخطوطة "سِفرْ العاشقين"

(مخطوطة ح/ب ـ ١)

تتضارب الأقوال والتصريحات والمراجع والأسفار المقدّسة حول سبب خلق ذلك الكائن العجيب الذي اسمه امرأة، لكنّها جميعاً تجمع على أنّ الإله قد خلقها في لحظة تجلٍّ ورضىً، وعلى أنّه جعلها خلاصة إبداعه، وشبيه كلّ مخلوقاته، فأخذ من البحر هديره، ومن السماء كرمها، ومن الأرض حنانها، ومن الشجر حنينها، ومن الشمس وهجها، ومن الوحوش غضبتها، ومن الزهور أريجها، ومن الماء عذوبته، ومزجها جميعاً، ونفث فيها من روحه، فكانتْ المرأة. وأهداها للرجل الأوّل، الذي لا تذكر الأسطورة شيئاً عنه سوى أنّه كان كثير التذمّر، ولا يقدّر هدايا الإله، ويعيش في وحدة خرافية.

(*) تحقيق فضيلة العلاّمة إنسان بن إنسان بن إنسان أطال الله بقاءَه.

كان الرجلُ الأوّل زاهداً بهدية الإله، وسرعان ما ضاق ذرعاً بها، فهي أقامتْ الدنيا فوضىً، ولم تقعدها، وملأتْ دنياه نشاطاً ومرحاً وسلبته راحته ورتابته المجيدة، وألهته حتى عن صنع المذنّبات التي كان يعشق صنعها، حتى أنّه توقّف عن كتابة مذكراته الماجدة منذ أن جاءتْ، وحلّتْ ضيفةً إجباريةً في بيته الطيني الصغير، فقد كان إرضاؤها والشجار معها ومطاردتها في الوديان أموراً تستنفذ كلّ الوقت، وتستنزف الجهد والرغبة في الخلوة.

لكنّها أصبحتْ حديثاً كائناً لا يُطاق، يبكي كثيراً، ويغضب أكثر، وقلما يفيض عليه بالسعادة والحنو اللذين كان يشعر بهما معها في الماضي القريب، وإنهاءً لألمه وحيرته فقد حسم أمره، وقرّر أن يردّ هدية الإله، ويضع بذلك نهاية لسِفْر عذابه مع هذا الكائن العجيب، الذي ما سعى إلى أن يحصل عليه أبداً.

وقد كاد يتراجع عن قراره عندما تفاجأ صباحاً بصحافٍ من طيب الفاكهة قد أُعدّت له، بعد أن جمعتها المرأة من الغابة أثناء نومه، لكنّه عاد وجدّد النية وعقد العزم على ما كان قد نوى أن يفعل عندما غضبتْ المرأة مساءً؛ لأنّه داس دون قصد بعضاً من محاراتها الجميلة التي جمعتها من الشاطئ، فكسر بعضها، فاتهمته بتجاهل مشاعرها، والتدخّل بخصوصياتها، وهدر ممتلكاتها.

وقف الرجل الغاضب أمام الإله الأسطوري الغارق في بياض لحيته التي كادتْ تلمس الأرض ، وقال له بصلافة : أنا لا أريد

هديتك، خذها؛ فأنا لم أعد قادراً على العيش معها أبداً، الحياة معها جحيم أحمر. هزّ الإله كتفيه دون مبالاةٍ، وقالها: لك ما تشاء، فالمكان هنا يتسع لي ولها ولك إن شئتَ.

- لا أريد أن أعيش في مكانٍ هي فيه. قال الرجل وهو يغادر جنّة الإله لا يلوي على شيء سعيداً بتخلصه من هدية الإله، وإن كان يشعر بحزنٍ يغالبه بصعوبة كلما تذكّر نظرة الانكسار في عيني المرأة، وهو يردّها إلى الإله. لكنّه لن يعود، نعم لن يعود، كرّر هذه الجملة في نفسه ألف مرة، لكنّه عاد، ووقف أمام الإله منكسراً موزّعاً بين كبريائه المهدور، وقراراته الخطيرة، وبين شوقه إلى تلك المرأة التي لم يفارق طيفها خياله، وطغى صوتها ورائحتها وحركاتها عليه حتى وهي غائبة، فملك عليه حواسه، ونفذ إلى مداركه، قال للإله بتلعثم يوتّره الخوف من الصدّ والرّفض، وقال: لسبب أجهله أنا لم أعد قادراً على العيش دونها، يا إلهي ردّها إليّ، وسيكون لي شأنٌ آخر معها.

كاد الإله أن يرفض طلبه انتقاماً لنفسه، فأنّى لبشرٍ أن يردّ هدية منه؟! لكنّ المرأة تضرّعت طويلاً له كي يردّها إلى رجلها، فسرقتْ منه موافقة على كره منه، وغادرتْ المكان وهي تتأبّط ذراع الرجل، فيما وقف الإله يراقبهما بدهشة، وهو يضرب كفاً بكف، ويقول: لا بدّ أن كليهما... ربما كلاهما مجنون... أو أنّ كليهما عاشق(*).

● تعليقات توضيحية بقلم العلاّمة المحقّق:

(*) ملاحظة: باقي المخطوطة تالفة تصعب قراءتها.

١- الجنون والعشق مخلوقان من مادة واحدة.

٢- الإله خلق المرأة في لحظة غضب ليكسر صلف الرجل.

٣- المرأة لم تغادر الجنّة، بل بقيت فيها خالدة تنتظر عودة الرجل.

٤- الرجل هو المسؤول عن إتلاف باقي هذه المخطوطة لأسباب أمنية خطيرة.

(مخطوط ح/ب ٢) (*)

...ومن جديد تسلّل الملل والغضب إلى نفس الرجل، فقد باتتْ الحياة مع المرأة محنة لا تُطاق، فقد غادرتها رشاقتها المعهودة منذ أن اعتادت على أن تنضخّم لأشهر تسعة، ثم تتفتّق عن كائن لحمي غريب، يشبهه ويشبه المرأة، وإن كان كذلك يشبه صغار القرود، وإن اختلف عنها بشحّ شعر جسده، فالقرود تُولد بشعر كثيف ناعم كالزغب.

أصبحتْ المرأة عصبية ، وشعر الرجل لأوّل مرة في حياته بأنّ حنانها أصبح ملكاً لغيره من الصغار أشباه القردة ، جاهد نفسه

(*) تستكمل هذه المخطوطة ما سقط من المخطوطة الأولى.

لينتصر على حاجته إلى حنانها، لكنّ نفسه خذلته، فوجد نفسه يتكوّر إلى جانبها ليلاً، ويوسّد رأسه إلى صدرها الدافئ.

وبدأت الأمور تختلط، تماماً كما اختلطت المشاعر وتضاربتْ في نفس الرجل، وشهدتْ السماء مئات المرات من ردّ المرأة إلى الإله، ومن التضرّع والبكاء عند قدميه لاستعادتها. وبات من المألوف أن يُسمع صوت الرجل في الجنّة مجلجلاً يردّ هدية الإله، أو ذليلاً يرجوها الإياب، حتى ما عاد الإله يأبه بالرجل الذي أسماه الأحمق، ولا بالمرأة التي أسماها الحمقاء، وإن كان يدعوهما أحياناً بالعاشقين، وردّ المرأة بشكل نهائي إلى الرجل، وقال له وهو يغادر المكان غير آبه بشكوى الرجل وبتذمّره المستمر من المرأة: أنت لا تستطيع أن تعيش مع المرأة، ولا تستطيع أن تعيش دون المرأة، إذن حاول أن تستطيع أن تفهم كيف تعيش مع المرأة...

قال الرجل بقهر المظلوم: ولكنني بحق لا أستطيع العيش معها.

ردّ الإله بسأمٍ بادٍ: هاقد عدنا من جديد...

كائن ليلي

يصرّ على أن يسكر طوال النهار، فيتطوّح يمنة ويسرة هنا وهناك، يجدّف ما شاء له السّكر أن يفعل، يتفتّق ذهنه عن كلمات يكتبها على عجل على ورقه الأصفر، تتناسب كلماته مع قرفه، ومع وحي اضطرابه، وصعوبة تعاطيه مع نفسه وعالمه، يسمع على مضض موسيقى عالمية؛ لأنّ المثقف المأزوم – وَفق ظنّه – عليه أن يكون ذوّاقاً للموسيقى العالمية، ملمّاً بالثقافة المحلية، وحرصه على الإلمام بتلك الثقافة المحلية يجعله يستقطب راقصات المنطقة وبائعات الهوى فيها، إذ هنّ مكوّنٌ مهم من مكونات ثقافة الفراغ والهزيمة والسقوط التي يمثّلها، ويطرب للعيش على جلدها الموبوء.

أمّا في الليل ، فيستيقظ ، يكتب ، يقرأ الصحف والمجلاّت ، يطارد الأخبار ومواقع الأنباء على الإنترنت ، يسبّ الأنظمة الحاكمة في كلّ المعمورة ، ويتقيأ على نفسه وعلى تاريخه الفارغ ، ويعلن لعشرات العشيقات اللواتي يلبس إحداهن في كلّ ليلة أنّه كائن ليلي ، ولذلك

يستبيح الليل، وسلوكيات الكائنات الليلية المنبوذة.

يشعر هذه الليلة بإعياء شديد، وتتوق نفسه إلى راحة طويلة، يستلقي في فراشه الذي يستسلم لروائح السّكر والانكسار والمرض ودموع بائعات الهوى، يتحسّس جلده الذي يغزوه وبرٌ كثيف، يأرجح ذيله الصغير بكسل، ويستسلم لقدره بأن يكون كائناً ليلاً، ويغطّ في سباتٍ شتوي طويل.

صوت الصمت

من الميزات المفترضة التي يعدّها ساكنو أسطح المنازل من الفقراء للأعشاش التي يعيشون فيها، وتسمّى بيوتاً، أنّها تشرف على الأحياء، فتراها من علٍ، حيث تُرى الأشياء من هناك على حقيقتها، فمن يرى من علٍ يرى الأمور كما هي، لا كما يُعتقد، أو كما يُفترض، وهذه مقولة تحتاج إلى نقاش، ولكن ما يعنيني من هذه المقولة أنّ من يرون من علٍ قد يعجزون كذلك عن رؤية جيرانهم من سكان الأسطح على حقيقتهم. أنا شخصياً اكتشفتُ في تلك الليلة أنّي على الرغم من فضولي الإنساني العجيب لم أرَ فتحية جارتي منذ عامين على الرغم من أنّي احترفت مراقبة الجيران، سكان البيوت المتزاحمة حدّ التدافع في الحي، وحفظتْ عن ظهر قلب محتويات أسطحها من الخردة والقمامة والأحذية البالية والملابس القديمة وحبال نشر الملابس.

لكن فتحية هي من لم أرَ، لعلّها لو كانتْ تسكن في شقةٍ أسفل

مني، لا في غرفة ملاصقة لغرفتي، إذن لكنتُ استطعت أن أراها، اعتدتُ على رؤيتها بسحنتها السوداء القاتمة، وقسماتها البارزة، وهيكلها العظمي المتدثّر بثوب أسود قديم، تذرع المكان ذهاباً وإياباً دون أن تنبس ببنت شفة، حتى خلت أنها لا تراني، وقد راقني ذلك، فأنا باغي هدوءٍ وخلوة، وهي ليست المرأة التي قد يطمح الرجل إلى الحديث معها، فهي أقربُ ما تكون إلى طلل امرأة يخلو من رقة أو أنوثة، كلّ ما يشغلها هو أن تقضي حاجة ثم تعود مسرعة، أو تخدم أمّها المقعدة، أو أخاها المعاق عقلياً منذ أن وُلد، فيظنّه الرائي ابن تسع سنوات، لا تسع عشرة سنة كما قيل لي إنّه قد بلغ منذ أشهر.

لم أسمع فتحية تنبس يوماً بكلمة، ولوما أنّها كانت ترافق أختها المتزوجة أحياناً حتى بداية السلم، وتودّعها بطيب الكلمات، لما عرفت أنها تجيد كلاماً أو لغة، فهي امرأة صامتة شأنها شأن أسرتها المتهالكة في يديّ المرض والفقر، وحمداً لله الذي يسرّ لي أسرة صامتة، إذ إنّ الحائط الإسمنتي الرقيق ما كان ليمنع أيّ ضوضاء أو كلام من أن يتسرّب إلى غرفتي، فيمنعني لذيذ الراحة، وعزيز الهدوء الذي أحتاجه في مهمة دراستي الجامعية.

كان من المحتمل أن تبقى فتحية صامتة إلى الأبد ، ودون أن أعرف قصتها ، وما كنت لأبالي بذلك ، وأخال أنّ القليل من الرجال كان سيعنيه أن يعرف قصة امرأة أخطأها الجمال ، وخانها الشباب ، ولم يحالفها الحظّ يوماً ، لكن حادثة مفاجئة أجبرتني على أن أسمع

قصة فتحية، كانت ليلة ماطرة من ليالي الشتاء الباردة عندما استيقظ الحي على صوت سيارة الإسعاف، لم نعرف من استدعاها، ولم نخمّن سبب حضورها، لكنّنا تفاجئنا جميعاً عندما عرفنا أنّها جاءتْ لتُسعف فتحية الصامتة صمت القبور، أحدٌ لم يعرف ما حدث لها، غادرت الحي دون مشيعين من الأهل، أو أصوات استغاثة أو ألم أو بكاء، وعادتْ إلى المكان أيضاً بصمت في الهزيع الأخير من الليلة نفسها، ولكنّها عادت مختلفة، عادتْ امرأة لا تعرف الصمتْ، طوال الليل هذرتْ بكلام لا يتوقف، يهدر بغضب ومقت وحقد، حمّمتْ أخاها المعاق في حوض حديدي صدأ، صفعته كثيراً، فتأوّه، وأطلق بكاءً كحشرجات صلدة، ثم اتخذتْ مكاناً قريباً من الحائط الذي يفصلنا، فبات صوتها قريباً للغاية، لعنتْ الدنيا والنّاس، وجدّفت دون حياء، ولامتْ أمّها وأباها وأخاها وأختها وكلّ من عرفت ولم تعرف على معاناتها الطويلة، وعلى حرمانها، كانت فتحية شقيّة وظالمة ومظلومة وبشعة ومهمشة من الداخل كما هي بشعة من خارج!! صرختُ بملء فمي وأنا أركل الحائط الذي يفصلنا قائلاً: يكفي، دعينا ننام يا فتحية. ولكنّ هدير كلام فتحية لم يتوقّف، فلبستُ على عجل، وهمتُ على وجهي في الشوارع حتى حان موعد أوّل محاضرة، فذهبتُ إليها، واتخذتُ مكاني في المقاعد الخلفية، وأكملتُ نومي.

حلمت بأنّني قد رحلتُ من غرفتي هرباً من هدير كلام فتحية،

ووضعتُ فرضيات مضحكة لانطلاق لسانها بعد عمر من الصمت، واستيقظتُ وفي نفسي أن أحقّق حلمي، لكنّني سرعان ما اكتشفتُ أن لا حاجة لتحقيقه، فقد هربتْ فتحية من البيت دون رجعة، وتركتْ أخاً ميتاً من الصفع والرّكل في وعاء استحمام حديدي صدأ، وأمّاً ميتة في فراشها إثر نوبة قلبية حادة.

ومن جديد ساد الصمت في غرفتي فوق السطح، وإن كنتُ لا أزال أسمع من حين إلى آخر صوت صمتْ فتحية يصكّ المكان، فأشعر بخوف لا أجدُ له تفسيراً، فانكمش في فراشي، وأتظاهر بالنّوم إلى حين يرحل صوت صمتها الرهيب.

هلال المجرم

تدفقّتْ الجماهير الغاضبة من الزقاق والعرصات والشوارع، وشكّلت سيلاً عرمرماً يهدّد بابتلاع مقرّ إقامة فخامته، نجحتْ الشرطة بأن توقف الغاضبين عند تخوم القصر، لكنّها ما كانت لتعد بالمزيد من الضبط والحماية. فالسؤال الملحّ اللاهث يضطرم في النفوس، ولحظة الإجابة عنه ستكون نار تلظّى، والجماهير تطالب برأس من تسبّب بهزيمة الأمة، وفضح سترها في تلك الحرب العجيبة، التي انتصر فيها شرذمة من الضعاف الجائعين على فلول المجاهدين الأبرار، والتي خرست فيها أسلحة الوطن، في حين أنشدتْ فيها أسلحة العدو ترانيم النصّر والمجد.

بحركة تمثيلية متقنة أقنع فخامته الشعوب بعدالة غضبها ، وانضمّ إلى صفوفها انتفاضتها ، وخلع من رقبته طوق الاتهام ، ووضعه في رقبة معاونيه وكبار قوّاد دولته الماجدة المنتصرة !! وأقسم بشرف أمّه سليلة المجد المدّعى والحسب المزعوم على أنّه سيسلّم المجرم بحق

القومية والوطنية والعروبة إلى الشعب قبل أن تغيب شمس ذلك النّهار الذي يحمل في حرارته تباريح الموت.

تسرّبت الراحة إلى نفوس الجماهير الغاضبة، وطالبتْ بمحاكمة عادلة تردّ الأمور إلى نصابها، وتبرّئ المظلومين، وتجرّم الخائنين، طار فخامته بالفكرة، وهلّل وكبّر، ووسّم نفسه وسام الحرية والعدل، وسمّى نفسه رئيساً أعلى لتلك المحكمة التاريخية.

تابعتْ الجماهير تفاصيل المحاكمة، وتجرّعتْ على مضض إجراءات التفتيش والتحقيق والتنكيل والتبريء، وذاقتْ مرارة السجن والتعذيب والبطش، ولكنّها كانت مؤمنة بأن يوم الانتقام قريب.

وجاء اليوم المنتظر أخيراً، إذ سُمّي ذلك اليوم بناءً على رغبة فخامته بِــ(يوم الغضب)، وشهدتْ المحكمة أعجب تفاصيل المقاضاة والتبرئة والتجريم، فقد بُرّأَ فخامته؛ ضنّاً به على الخيانة، وبرّأ معاليهم وسعاداتهم وسياداتهم وحضراتهم؛ لأنهم أقوى من القانون، وبرّأ الأعداء من جريمة الاعتداء؛ لأنّهم دفعوا ثمن البراءة لفخامته، وبرّأ كبار القادة والجنود والضباط؛ لأنّهم كانوا سكارى ليلة المعركة، والسكارى فاقدو العقل، والإنصاف يقتضي أن فاقد العقل لا يُجرّم، وباء هلال الأعور مجنون الأحياء القديمة بلقب (عدو الشّعب)؛ فقد تمخّضت التحقيقات السّريّة عن أنّ خسارة المعركة كانتْ بسبب عين هلال ، إذ هي عين حسودة شريرة ، أصابتْ الأسلحة بالعطب ،

ودفعت بالجنود المسلّحين بالوهم إلى الموت، وفي تقرير أكثر سرية نشرته صحيفة دولية مرموقة كُشف النقاب عن أنّ هلال عميل مزدوج لأكثر من جهة معادية، ولذلك فقد اقتضتْ العدالة أن يجرّم هلال، وأن تُنزل به أقصى عقوبة، وأن يغرّم غرامة مالية ضخمة تعوّض خسارة الوطن، وتعيل أُسر الشهداء، وتغطي نفقات إعادة تسليح الجيش، فضلاً عن إسكاره.

تفاجأ الشعب بالحكم العجيب، لكنّهم سرعان ما هتفوا بسقوط هلال المجرم، عدو الشعب، وشهدوا بتشفٍ إعدامه رمياً بالرصاص، وعادوا سعداء إلى بيوهم، بعد أن عاقبوا المجرم، وأحقّوا الحق، وأفهموا فخامته أنّ إرادة الشعوب الواعية هي من تنتصر في النهاية.

المصعد القديم

كانوا جميعاً مسرعين مثقلين بأعباء يومهم، وقفوا متراصّين في المصعد كحبّات طماطم ناضجة تكاد تنفجر، كلٌّ يطالع ساعته بتأفّف، هي كانت زبونة حمراء لشقة رقم (٧)، هو جاء ليتمّ صفقة مشبوهة، وهما يجتمعان مع الأصدقاء لتعاطي المخدرات، وهو عاد متحفّفاً من أمّه بعد أن رماها في دار العجزة، مثقلاً بأكياس فيها طلبات زوجته، وحوائج البيت، وهي مثقلة بوزنِ جسمٍ خرافيٍ حملته منذ أن هجرها حبيبها، فانتقمتْ منه بأن أكلتْ دون توقّف، فأصبحتْ كوسادة بالية، تكاد تتفتق، وتلك ستحفظ دورها جيداً، وتقسم بالله كذباً في المحكمة، وتقبض المُتفق عليه من المال، وليحترق المظلومون.

عندما توقّف المصعد فجأة، وانقطع الضوء ، أدركوا أنّهم أسرى جدرانه الحديدة الصلدة ، كانوا معلقين في الهواء ما بعد الطابق السابع عشر ، أوهنوا الجدران ضرباً ، لم يلبّ أحدٌ استغاثاتهم ، عندها

تكوّموا على أرضية المصعد بتراصٍ مزعج، وسمحوا لإنسانيتهم بأن تحلّق، فالإنسان المعلّق على ارتفاع سبعة عشر طابقاً غير ملزم بهجر ذاته، اعترفوا بذنوبهم دون أن يُجبروا على ذلك، بكوا على سجيتهم في الظلام حيث لا شهود، عقدوا العزم على التعاظم أمام ضعفهم، وهجر ذنوبهم دون عودة... وطال الانتظار، وتجدّد العزم آلاف المرات في الأنفس وعلى الشفاه...

وعندما فُتح باب المصعد بعد خمس ساعات طالع كلٌّ ساعته، وتأفّف بعمق، وغادر المصعد دون ابتسامة وداع، وتوجّه إلى ما كان يقصده كي يكمله، فقد تأخر عنه خمس ساعات بسبب ذلك المصعد القديم كثير العطب!!

أصابع وقحة

كانت له أصابع يدين متمرّدة ووقحة، تكتب بحريّة، فقطعوها؛ ليريحوه من ثرثرتها المزعجة، فكتب بأصابع قدميه، فبتروها، فكتب بأصابع روحه، فأردوه قتيلاً برصاصة باردة، ودفنوه في العراء، فتسلّلتْ أصابع روحه، وكتبتْ على جدران المدينة: "لا للاستبداد..."، فأحرقوا قبره اللعين، فأصبح مزاراً لعشّاق الأشباح المتمرّدة، والأصابع الوقحة.

الكفّ

يؤمن هو بما تقوله خطوط كفّ يده، يراقبها باهتمام، يلاحق عيني العرّافة وهي تركض في خطوطها، تتنهّد، وتقول له: خطوط يدك غامضة، لا تفسير لها، لا تُقرأ...

يصمم على أن يعرف طالعه، يفتح كفه لكلّ قارئ، أحدهم يقول له: قدرك أن تُفني العمر في البحث.

يقطع الوالي كفّ يده لجرم لا يعرفه، ويلقي بها بعيداً، فيطفق صاحبها يبحث عنها ليل نهار كي يقرأ فيها سبب قطع الوالي لها.

السيّدة أنوار

أذابت كلّ أوراقها الثبوتية، ووأدتْ الماضي بكلّ سقطاته وهفواته وآلامه عندما وأدتْ اسمها الحقيقي، ولبستْ اسمها الفني الجديد "أنوار" الذي اختاره لها تاجر الأراضي الذي تحوّل في ليلة وضحاها من بائع أفلام إباحيّة إلى مدير أعمالها الفنية، وتاهتْ باسمها غيّاً عندما احتلّ واجهات دور السينما، وصفحات المجلات الصفراء، وأصبح رديفاً للدلع والأنوثة والتعرّي. والحقيقة أنّ اسمها وما ارتبط به من فُحش وإثارة جعلاها تتنازل عن الكثير من قماش ملابسها، حتى بات يكفيها نصف متر من القماش ليغطي اليسير من جسدها، في حين يعلن الباقي منه الكشف والجهار، كذلك ضحّت بالكثير من قيمها وحصانة جسدها وروحها مع ما ضحّت به من القماش في سبيل أن يبقى اسمها الفني "أنوار" مضاءً على واجهات دور عرض الأفلام.

لكن إخلاصها لفنّها هو الشيء الوحيد في حياتها الذي لم

يخضع لحملة حمية وتقليصلات وتنازلات، فقد كان أثيرها، وخليل روحها، لذا فقد كانت الممثلة المبدعة التي لا تتقمص الدور أو تلبسه أو تعيشه بل تكونه ويكونها، فيبكي قلبها عندما يكون عليها أن تبكي، وتتراقص على وقع خلجات قلبها عندما يكون عليها أن تفرح.

فكّرتْ كثيراً قبل أن تقبل بدور العابدة التاريخية التي لم تسمع باسمها قط، وعجبتْ من نهايتها الغريبة، إذ تحوّلت إلى خيط نور، واختفتْ. لكنّها قبلتْ بالدور من باب التحدي، ونزولاً على رغبة مدير أعمالها الذي هلّل وكبّر وتقافز كجندب فرحاً عندما رأى الأصفار الكثيرة المكتوبة في العقد مقابل تأدية "أنوار" لذلك الدور.

عجزت عن أن تتقمّص الدور، فهي ما كانت يوماً عابدة ورعة، بل كانت أنوار، وأيّ خطيئة كانت أنوار؟! قررتْ أن تكون العابدة لكي تجيد تمثيل دورها، اعتكفتْ في بيتها، وفضّتْ من حولها حفلات السهر والعربدة، وطالتْ ملابسها حتى كستْ جسدها، وذاقتْ حلاوة الإيمان، وعرفتْ معنى احتشام الجسد والروح، وعشقتْ عطر الوضوء والصدقة والطهارة، وكانتْ العابدة.

انتهتْ فترة الاستعداد لتصوير الفيلم، وبحث الجميع عن أنوار، التي اختفت، وصرّح أصدقاء مقرّبون بأنّها لم تسافر أو تُخطف بل تحوّلت إلى خيط نور...

خليفة الله

هو يحبّ للغاية أن يتمثّل كلّ ضروب الملك وألوان السلطة من باب التغيّر والتجريب الذي يزعم أنّه من روّاد مدرسته، لذلك فهو يطبق المنهج الرأسمالي فيما يخصّ احتكار أموال الدولة التي يحكمها، ويطبق المنهج الاشتراكي عندما يستولي على أموال المعارضين والمنشقّين، أو يشارك لصوص الدولة بغنائمهم بدل أن يحاكمهم، كذلك هو من أنصار مدرسة التذوق الجمالي، لذلك هو لا يشبع من الوجوه الحسناء، والأجساد الأنثوية المثيرة، والمأكولات الشهية، وهو رياضي الدولة الأوّل، لذلك فهو يمارس رياضة الصلاة والحج والاعتمار كلّ عام.

وقد جرّب كلّ ألقاب الحكم، فأرضاه لقب خليفة الله، إذ عدّ نفسه ظلّ الله في الأرض، فأطلق يده في دم العباد، وحدّث نفسه طويلاً بأنّه ليس خليفة الله في الأرض، بل هو إله الأرض عينه.

وتحت غطاء لقبه المجيد فقد شرع في كلّ ليلة يتفقّد الرعية،

ويذرع المدن سيراً على قدميه ترافقه ثُلة من حرسه متدثرين جميعاً بالليل وبملابس الدهماء، وبذلك استطاع أن يكون عيناً على العيون التي أذكاها في كلّ مكان.

في الليلة الأولى اكتشف مدى فساد نظام الصحة، لذلك فقد أمر ببناء مستشفى عظيم مجهّز بأحدث ما وصل إليه العلم، ومؤهّل بأفضل أطباء البلاد، وبنى داخله سكة جديد، إذ أجرى قطاراً ترفيهياً فيه، يركبه كلّ من دفع أجرته، ورغب في أن يستمتع بآهات المرضى، وأنات المنكوبين.

في الليلة الثانية كانت زيارته إلى ديوان قاضي القضاة، ودار المظالم، وقد زحمته طوابير المتظلمين حتى ما استطاع أن يتفقّد أيّ المكان، لذا فقد أمر بفرض ضريبة باهظة على كلّ متظلّم حتى يفضّ جموع المتجمهرين حول ديوان قاضي القضاة ودار المظالم.

أمّا الليلة الثالثة فقد وقفها على طعام الرعية، وجرّب بقرف أن يأكل من طعامهم، فتذوّق طبقهم الشعبي الفقير الذي يخلو من لحم أو مرقٍ أو دهن، إذ كان الطبق الوحيد المتوفّر في أيديهم التي فرغتْ من المال، وامتلأتْ هواءً وجوعاً، اللقمة الأولى كانت على حذر، اللقمة الثانية ذابتْ في عروقه كالصمغ، أعجبه ما يأكل، وتحرّق ندماً على تفريطه لجهله بهذا الطعام اللذيذ، وسنَّ قانوناً يحرّم أكل هذا الطبق الشعبي اللذيذ، إذ قفه على نفسه، فيما ألزم الرعية بحمية إجبارية حفاظاً على صحتهم المتدهور لسبب يجهله!!!

عابد المستعجل

لم تكن علاقته مع المسجد علاقة موظف مع عمله على الرغم من أنّه كان يتلقّى راتباً زهيداً من وزارة الأوقاف مقابل أن يأذّن للصلوات الخمس كلّ يوم، ويفتح المسجد ويغلقه، ويقوم على شؤون نظافته، ولو كان في غير ضائقة مالية ملازمة لم قَبِل أجراً على ذلك، ولكنّه كان في حاجة ماسة إلى ذلك الأجر المتواضع كي ينقطع لمسجده ولخدمته، ويكفي نفسه شرّ السؤال، أو جهد العمل المضني والشاغل عن لزوم مسجده الحبيب.

علاقته بمسجده تشبه علاقة المرء بالوطن، أهناك من يُسئل عن سبب حبّه لوطنه؟ لقد وُلد في هذا المسجد، وبالتحديد على سجّاده القديم، إذ كانت أمّه من خدمه، فجاءها المخاض فيه، فولدته في قاعة الصلاة، فسمّى لذلك "عابد"، أملاً في أن يكون ملازماً لهذا المكان الطاهر، وكذلك كان.

لم يبتعد في حياته كلّها عنه أكثر من ساعات، في حين تبقى

روحه مرتهنة به، تحلّق حوله، وترفرف في جنباته، حتى حذق مقداراً طيباً من علوم الدين، وغدا مؤذن المسجد، يطرب في كلّ يوم خمس مرات وهو يترنّم بالآذان، ويقوم على خدمة المسجد، وتنظيم أموره ابتداءً من استقبال الصدقات مروراً بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين انتهاءً بالعناية بأشجار المسجد، والعمل على صيانته، وغسل حماماته ومغاسل الوضوء.

بيته كان بعيداً للغاية عن المسجد، لذلك ما كان يراه الناس إلا مهرولاً إلى المسجد، لذلك فقد أسموه تندّراً عابد المستعجل، لذلك فكّر في بناء غرفة صغيرة في حديقة المسجد؛ كي يلزمه ليل نهار، وشرع في ذلك، لكن مشروعه تعطّل، إذ وقع من مئذنة المسجد في حادثة غريبة، وخرّ ميتاً، ودُفن في مقبرة المنطقة في أقصى الشمال.

وكاد الجميع ينسى المؤذن العابد، وشرعوا يعتادون على صوت المؤذن الجديد، إلا أنّ بعضهم كان يقسم على أنه يسمع مع كلّ آذان صوت لهاث عابد، وهو يحضّ الخطى ليصل إلى المسجد، وفي بعض الليالي الشتوية الغائمة المشحونة بالمطر كانتْ تُرى قدما عابدٍ المعرّاتان من جسدٍ تسيران سريعاً نحو وجهتهما المقدّسة.

عملية ناجحة

احتشدوا جميعاً مثقلين بقلقهم وتوسلاتهم وأدعيتهم على باب غرفة العمليات، لطالما انتظروا جميعاً هذا اليوم لينهوا آلام أمهم ومعاناتها التي بدأتْ منذ سنوات، بعد أن أجذبتْ جيوبهم في سبيل جمع المال الكثير لهذه العملية الباهظة، وبعد أن لاك المرض أمهّم حتى كاد يبتلعها.

وهاهم اليوم يقفون هاهنا ينتظرون اللحظة المتمنّاة التي يخرج فيها الطبيب ليبشرهم بنجاح العملية، الصمت يلفّ المكان، ورائحة المطهّرات الطبية تزكم الأنوف، وصور العيون الزائغة تنعكس على بلاط المستشفى الاستثماري المخصّص لأمراض الأغنياء، ولآخر صرعات عمليات التجميل، وشفط الدهون، وتكبير الشفاه والصدور، وتصغير الخصور والأفخاذ.

خرج الطبيب الأصلع ذو النظارات الشفّافة كالبلور بلباس العمليات ، فيما خرجتْ في أثره ممرضتان وطبيبة على عجل ، تحلّقتْ

أجساد المنتظرين حول الطبيب، وحاصرته العيون الوجلى، وسأل والد العيون المنهكة بانكسار وقلق عن صحة المريضة، وعن مدى نجاح العملية.

ابتسم الطبيب ابتسامة ضيقة كشفتْ عن سنّه الذهبي، وقال على عجل وبحركات إلكترونية ممجوجة لكثرة ما قام بها: الحمد لله، كلّ شيء قد سار على ما يرام، العملية نجحتْ نجاحاً باهراً، والسرطان قد استُئصل كاملاً، والتنفس كان جيداً، وضغط الدم وَفْق معدله الطبيعي، وقد نظّف الجرح بشكل دقيق، ثم خِيْط بدقة ومهارة، وقد رُوعي في ذلك أن لا يترك الجرح أيّ تشويهٍ أو ندبة.

تقافز الأبناء بفرح، وهلّلوا مكبّرين، وشدّوا على يديّ الطبيب مصافحين شاكرين، في حين طبعتْ حفيدة صغيرة قبلة امتنان على كفّ الطبيب، الذي تنحنح وقال بثقة: نحن حريصون على سمعة المستشفى، كما أنّني حريص على سمعتي المهنية.

قالتْ إحدى بنات المريضة بلهفة: ومتى ستخرج أمي من المستشفى يا طبيب؟

قال الطبيب بحزم وهو يخطو خطواتٍ عملاقة مبتعداً عن ردهة الانتظار: الآن فوراً.

هتف الكلّ بعجب: الآن؟!

- نعم الآن، فقد نسيتُ أن أخبركم أنّ العملية قد نجحتْ، ولكنّ المريضة لسوء الحظّ قد ماتتْ.

الشيطان يعشق

أخفق الشيطان في أن يسترضي السماء، وأخفق كذلك في أن يعتنق أيّ ديانة، بل ورُفضِ أشدّ الرفض، فاعتناقه لأيّ ديانة يعني بالضرورة خسارتها لقطب رئيسٍ من أقطاب فكرها، وهو قطب الشّر، لذلك قرّر أن يخلع الغلّ من قلبه كخطوةٍ أولى نحو التنكّر لأصله النيراني الملعون أملاً في أن تواتيه الفرصة، فيهجر لعنته الأبدية، وينطوي تحت رداء الصالحين والملائكة والأبرار.

ولكن ما كان يتوقع أبداً أن يمتلأ قلبه بذلك الرذاذ السّحري المسمّى عشق في ليلة وضحاها ، لقد عشق تلك الآدمية حدّ الاحتراق بنيرانه المقدّسة، وحاول أن يقترب منها ؛ ليبثّها لواعج قلبه، ويهديها فريد عشقه، لكنّه أحرق وجهها الجميل مع أوّل زفرات عشقه ، إذ انطلقتْ حامية سخينة ، فألهبتْ بشرتها الجميلة، وحاقتْ بملامحها السامية، وفي زيارة ليلة مفاجئة لها في المستشفى الذي تستطّب فيه إثر احتراق وجهها، حاول أن يمسّد على كفّها الصغير

الوردي، فكاد يذيبه بجسده المحموم، عندها آل على نفسه أن يبتعد عمّن يحبّ ما استطاع، إذ عرف أنّ الحبّ الحقيقي لا يكون بالقرب، بل يكون بالتضحية، وصرّ أحزانه ووجده كسفاً من نار وأسى في نفسه، وقضى صريعاً، فَقُيِّدَ اسمه في سِفْر الأبرار في مقام العاشقين.

حادثة انتحار عصفوري حبّ

جيناهما المقدّسة تحمل العشق والحبّ والإلف، لذلك كانا عصفوري حبّ، عشقا بعضهما كما ينبغي لهما، إذ هما سفيرا المودّة والمشاعر الدافئة، ولزما بعضهما في قفص ذهبي صغير أعدّ خصيصاً لهذه الشقة الفارهة، حيث سيعيش الزوجان الشابان حديثا الاقتران، وشحذا قريحتيهما لتجودا بأجمل سقسقات العشق، ولكنّ لا أحداً من الزوجين عناه أن يستمع إليهما؛ إذ كان كليهما متورطٌ في فوضى السُّباب، وحمى البكاء والتكسير، وتراشق التهم والزهريات وأدوات المطبخ.

حاول عصفورا الحبّ أن يخلقا هدنة برفيفهما المضطرب، وشدوهما المبتور قسراً، لكن دون فائدة، فقد هزم الكره والخلاف والتنابذ صوت القلب والتراحم.

أصيب عصفورا الحبّ بصدمة شديدة ، أفقدهما القدرة على التغريد ، ثم أصيبا بحالة كآبة شديدة ، وفي حالة فريدة من نوعها

انتحر العصفوران غير نادمين، ودفعا بجسديهما الداميين إلى قطة البيت لتلتهما كما تمنّت دائماً.

لم يجد الزوجان وقتاً ليرثيا عصفوريهما المنتحرين، ولم تشعر القطة بالشبع، بل اتّقدت شهوتها لأكل عصافير الحبّ، وأملّتْ نفسها بالمزيد من عصافير الحبّ المنتحرة في الحروب الأسرية الدامية المعتادة، وانتظرتْ بشوقٍ ولهفة أن يفكّر الزوجان العدوان باقتناء عصفوري حبّ جديدين يكملان بهما رونق شقتهما المعمورة بالأثاث الفخم والمشاعر الخربة.

السيّد نجمة

هي سيدة حالمة للغاية، ولكنّها تؤمن بأحلامها، وتجتهد كي تحقّقها، تنجح أحياناً في ذلك، وتخفق غالباً، لكنّها سعيدة بأحلامها التي لا تملك غيرها.

بحثتْ طويلاً عن فارسها الليلكي في الأرض، ولّما لم تجده، ولم يسعَ رجلٌ كي يكونه، قرّرت أن تصاده في الأحلام، نثرتْ شباكها الشفّافة المنسوجة من أديم الحرير، فطوّقتْ أجمل نجمات السماء، كانتْ رجلاً نجمة، أو نجمة رجل، كان رجلها على قدر التمنّي، ومستحيل هو الرجل الذي على قدر أمنية، عرجتْ إلى السماء، وطوّقتْ رجلها بطوق من زهور النرجس، وتأبّطتْ ذراعه، واستسلمتْ لأفراح النجوم، ولزغاريد السماء، وعادتْ به إلى الأرض، حيث نودي في صبيحة تلك الليلة السماوية لصلاة الجنازة على صبحية التي خرّت ميتة عن سطح بيتها، إذ كانتْ تسير أثناء نومها.

سرير صغير

كان له الكثير من الأحلام الملونة والأُمنيات المؤجّلة، ولكنّه كان يدعو بحرارة إله الأشياء الصغيرة كي يهبه سريراً كبيراً، ينام فيه وحده، لا يزحمه فيه أخٌ أو جدٌ أو ضيفٌ، فاستسلم الإله لدعواته الحارة، ووهبه سريراً كبيراً، ومن ذلك اليوم، وهو يدعو الإله بضراعة كي يهبه شخصاً يشاركه النّوم في ذلك السرير، إذ اكتشف أنّ الأسرّة الكبيرة باردة أكثر مما يحتمل، وتخلو من لغة الجسد، وألفة التّراص، وأدرك أنّه من أولئك الذين يفضّلون الدفء على الأماكن المتسعة، لكن الإله لم يدرك ذلك، ولم يستجبْ أبداً لدعائه الأخير.

الطفل الأعجوبة

اعترف الجميع بأنّ طفلها أعجوبة مخيفة، فقد وُلد أبيضَ من غير سوء، مُكتنز الأعضاء، دون قدمين أو يدين، وبوجه دائري متسع، يكسوه استواءٌ مخيف، وتعلوه رتابة دائمة، إذ لا أنف أو عينين أو فم أو أذنين له، ولكنّه طفلها العزيز الحبيب، الذي نجتْ به بعد أن اجتاح العدو الصهيوني قريتها، فشرّد الأهل، وقتل الزوج، وحال دون الأبناء، فنجتْ بجلدها وبطفلها الرضيع الأعجوبة، الذي تعلّمت أن لا تتركه ولو للحظة في سريره يداعبُ نوماً لذيذاً، فقد يداهم العدو الصهيوني المكان في أيّ لحظة، ويسلبها طفلها الحبيب هو الآخر.

أليس من حق الأم بل من واجبها أن ترعى طفلها الرضيع؟! ليس في ذلك أيّ عجب، إذن لماذا يطاردها أولئك الصغار الحمقى من شارع إلى آخر، ويصرخون في وجهها قائلين: هذه هي المجنونة التي تحمل مخدّة ليل نهار!!؟

تمثال الحرية

جاء مع والده إلى أرض الحريّة كي يتعالج من مرض عضال، همس الأب في أذنه قائلاً: من هنا جاء أولئك الجنود الذين قتلوا أبناء صفك، وخطفوا عمّتك، وخرّبوا حديقة الزهور. صمتْ الصغير، وانكمش على نفسه وهو يرمق التمثال الأصمّ، كان تمثالاً كبيراً، برأس أنثوي متوهج، وبيدٍ تحمل مشعلاً كبيراً هو أوّل ما لفتَ نظره في تلك البلاد، اقترب من أبيه، وسأله بفضول: تمثال من هذا يا والدي؟

قال الأب بلا حماس: تمثال الحريّة...

قال الصغير بفرح من وجد سكاكر في يد مقفلة راهن عليها: فهمت. هم إذن يشيدون التماثيل لموتاهم، تماماً كما نفعل نحن في بلادنا...

أومأ الأب بإيماءة غير مفهومة، وشدّ بحزم على يد ابنه الصغير، وانطلقا نحو المستشفى.

المطاردة

المطاردة هي اللعبة الوجودية الوحيدة التي عرفتها وورثتها عن أسلافها، كما ورثها ذلك الشبل الصغر عن سلالته الدامية من السّنوريات، كما تمنّت أن تداعب الماء دون وجل، أو أن تتسكع في البراري دون خوف، لكن ذلك الشبل طاردها دون كلل، فقد كانت طِلْبته، فسيقانها الرشيقة هيّجتْ ثورة القرم فيه فعكّر صفو أيامها، وحرمها من صغير أمنياتها، وما رحم جمال عينيها، ولا ألف نفرتها.

بدأ اليوم بمطاردة إجبارية اعتيادية، وعندما كاد قلبها يتوقف تعباً، وحنّت أوصالها إلى الراحة، ونازعتها نفسها إلى الاستسلام، توقّفت إثر قرارٍ جنوني مفاجئ، وقالتْ للشبل الذي يزدرد لهاثه وتعبه: يا هذا! توقف قليلاً، وقل لي: لماذا تطاردني ليل نهار؟

قال الشبل وهو يحاول أن يجمع شتات أفكاره: لأنّكِ ظبية، وأنا شبل، والأشبال تطارد الظباء، هذا هو قانون الغاب.

قالتْ الظبية بخضوع ورجاء: ولكن لماذا لا نكون أصدقاء؟ فنلعب ونمرح ونسعد بالحياة بحق، بدل هذه المطاردة التي أوهنتنا وأتعبتنا، ومزّقت سعادتنا وأيامنا؟

قضّبَ الشبل حاجبيه، ورقّص ذنبه الفتي ذا الشعرات الكثيفة، وقال: تبدو لي فكرة الصداقة واللعب فكرة جميلة. تساءلتْ الظبية بوجل ورجاء وسعادة: إذن نكون أصدقاء؟!

قال الشبل: نعم، لنكن أصدقاء، لنلعب معاً.

الظبية: ولتكن لعبتنا مسلية ومثيرة وحيوية.

قال الشبل بانفعال: نعم، لتكن لعبتنا مسلية ومثيرة وحيوية، ولكن ما هي اللعبة التي تقترحين؟

قالتْ الظبية بحماس من وجد ضالته: ما رأيك بأن نلعب لعبة المطاردة؟

– كيف؟

ردّتْ الظبية بحماس: أنا أركض، وأنتَ تحاول الإمساك بي.

لوحة جميلة

كان أفقر شخص في المدينة، وأفضل رسّام فيها، اعتاد على أن يرسم لوحة كلّ يوم، وعلى أن يبيعها في حانة المدينة بزهيد المال، ثم يتناول بثمنها طعام العشاء، وجبته اليومية الوحيدة، ثم يشتري الخمر بالباقي من المال؛ لينسى لوحته المسكينة التي باعها ليشتري بها الطعام والخمر.

رسم في ليلة جاع فيها كثيراً أرضاً خضراء، ومياه رقراقة، وشمساً مشرقة، ووجوهاً باسمة، وطيوراً سعيدة، وباباً صغيراً. اجتهد كي يبيع لوحته في الحانة، لكن أحداً لم يرغب بها، حدّق في لوحته الجميلة، مسح دمعتين سخينتين انزلقتا على وجنتيه، وفتح باب اللوحة، ودلف إلى عالم اللوحة الجميل، وأقفل الباب بقوة.

مرايا

كان عاشقاً للأجساد النسائية الجميلة، والأعضاء المتناسقة، والعيون المشقوقة بعناية، ومتيّماً بالعطور الفرنسية، والملابس التي تواكب آخر صرعات الموضة، لا سيما تلك التي تجتهد كي تظهر من الجسد أكثر مما تُخفي، كان يرى بعينيه فقط دون قلبه، فيرى الأجساد البشعة، ويغفل عن الأرواح الجميلة، لذلك لم يكن سعيداً.

أصابته صاعقة عجيبة في ليلة غير ماطرة، بل صافية للغاية، فأصبح يرى بقلبه لا عبر عينيه، فنعم بصداقة الأرواح الجميلة وبحبّها، وأحبّها هي بالذات، فقد كانتْ صاحبة أجمل روح قابلها. سخر الأصدقاء من حبيبته المسخ، وكرهتها الأم والشقيقات، وحوقل الأب عندما قابلها، لكنّه يحبّها، وسيتزوّجها، فهي أجمل امرأة قابلها في حياته، وإن كان الجميع يعجزون عن رؤية جمالها، حتى تلك المرايا تخونها، وتظهرها بسحنةٍ دون جمالها، ولكن... من يحتاج إلى المرايا؟!!

رأس خنزير

كي يكون حضارياً عليه أن يكون متحرّراً، وكي يكون متحرّراً عليه أن يكون متهتكاً، وكي يكون متهتكاً عليه أن يسعد بصرة ابنته تلوح في الشارع، وبثديي امرأته يتراقصان بغنج أمام بقّال الحي، وبوجه أمّه يشدّ كلّ عام حتى الأذنين؛ لتبدو في سنّ حفيدتها الصغرى، وبرشاقة لعبتها البلاستيكية، وكي يرسم ابتسامة دائمة لا تزول، فقد دخل إلى أقرب محلّ جزارة، واشترى رأس خنزير، وخلع رأسه، ولبس رأس الخنزير، وسار في الشارع، فأصبح حضارياً متحرّراً، وصاحب آخر صيحة موضة!!

عدالة

اعتادت البومة الأم على أن تصطحب ابنتها البومة الصغيرة إلى شتّى أصقاع الدنيا، لتطلعها على شؤون البشر والحيوان والطير، ولتعلّمها الحكمة والفطنة، وكانت تطمئن إلى حصافة ابنتها البومة يوم إثر يوم، وتركن إلى حسن إدراكها، إذا وجدتها تخلص إلى عبرة من كلّ ما ترى.

وفي يوم اصطحبتها إلى سجن من سجون البشر، وقفتْ البومة الصغيرة مندهشة من هول المطّلع، وكادتْ تشفق على البشر المحبوسين في أشباه حضائر، لولا أنّ نبهتها أمّها إلى ضرورة التبصّر لحين معرفة الجرم، فلعلّها عندئذٍ تبدّل عطفها على أولئك المحبوسين نقمة، وتقتنع برجاحة قرار سجنهم.

تابعتْ البومة الصغيرة المساجين طويلاً ، وعرفتْ أنّ ذلك الفتى اليافع النحيف كقصبة قد سرق دجاجة ليأكل ، فقُبض عليه ، وحُكم عليه بالسجن ثلاث سنين ، وقد كادتْ ترقّ لجوعه ، ولكنّها سلّمتْ

أخيراً بعدالة عقوبته، لكنّها لم تستطع أن تسلّم أبداً بعدالة عقوبة ذلك السمين الذي سرق خزينة أموال الأيتام، وابتنى بها قصوراً ومنشآت ومصانع، وادّخر الباقي في مصارف بعيدة، وطفق يقضي أوقاتاً ممتعة لسنين ثلاث في سجن اشترى كلّ من فيه لخدمته.

عجزتْ البومة الصغيرة عن أن تخلص بعبرة مما رأتْ، وحدّقتْ بضياع في عيني أمّها البومة، التي هزّت رأسها بأسى، وقالتْ: هذه يا ابنتي هي عدالة الأقوياء من البشر.

قوائم ثلاث

غضب بشدّة، وأزبد، وأرعد، وتوعّد الكلّ بالعذاب، وزجّ بوالدها وحبيبها في السجن، أليس هو ابن السلطان المدلّل وعشقه أمرٌ، وحبّه فرضٌ على الناس، لكنّها لم تركع، ولم تعشقه، بل رفضته، وآثرتْ عليه حارساً وسيماً معدماً من حرّاس الحدود، ولذلك غضب، بالتحديد لأنّها آثرتْ عليه من هو دونه مكاناً وحسباً وبطشاً وسؤدداً، ولعلّه دونه حبّاً لها، فهو يحبّها، وعلى استعداد لمقايضة سلطنة والده؛ التي لا تغيب عنها الشمس بنظرة رضىً منها، ولكنّها لا تأبه بسلطنة والده، ولا بحبّه المزعوم، الذي بات يتحوّل إلى غلٍّ وحقدٍ يقتاتان غلّ قلبه، وشهوة أعضائه.

صبّ جام غضبه على شعبه المسعور بحمّى إرضائه ، أقام أياماً سوداً لا ترحل ، ومنعها من الأفراح ، وأعدم مئات طيور الحبّ ، واغتال سعادة الشفاه ، ودبّ المرض في أوصاله ، لكنّها لم تشفق على حاله أعدم والدها ، وسلخ جلد من أحبّتْ وصلبه على أعلى جبل .

صخري في المملكة في مواجهة الحصن الصخري، الذي سجنها في ذروة عليائه، لكنّها لم تذرف دمعة استعطاف. انعزل في مقصورته الذهبية، وسدر في أحزانه وحيرته، واعتكف دون الطعام والجواري والطيب، وكادت ذاكرة الشعب أن تنساه، ولكنّه لم ينسَ تلك التي عشقها ورفضته، فامتلأتْ روحه حزناً وحقداً بسببها، ولكنّها لم ترقّ لحاله أو لحالها.

وحده حكيم الجبل الذي استجمع شجاعة نفسه، وسار بتؤدة، وهو يكبّد عصاه المنخورة حمل جسده المتهدّم ذا الظهر المقوّس، وادّعى أنّ في جعبته علاجاً لسقم الأمير الشاب، ففُتحتْ دونه الأبواب، وحُجبتْ عنه الأسئلة والتحقيقات، وبالعجل كان في حجرة الأمير، الذي شابتْ ذوائبه في ليلة وضحاها، واستسلمتْ قسمات وجهه للتجاعيد وللهالات السود وللعجز، تعلّقتْ عينا الأمير الغائرتان في محجريهما بعيني حكيم الجبل، انتظر بلهفة أن يعطيه ترياقاً سحرياً يبدّل جفاء فتاته وصلاً، وينزله في قلبها منزلتها في قلبه.

ساد صمت ثقيل مشوب بالانتظار ، ثم قال الحكيم بصوت رخيمٍ واثقٍ : يا بنيّ، الحبُّ جواد بريٌ أصيل ، لكنّه لا يمكن أن يعدو دون قوائم أربعة ، وبثلاثٍ هو عاجز تماماً ، وليس جواداً ، بل كتلة من العظام والعضلات والشَّعر والحرمان ، وحبّك يا ولدي جواد جامح تنقصه قدم ، ولا يمكن أن ينطلق متحدياً الريح ؛ لأنّه حبّ لم يكتمل ، لا يكفي أن تحبّ امرأة ما حتى يجري جوادك ، بل عليها أن

تحبّك أيضاً لكي يستوي الأمر...

- ولكنّ!!

- يا ولدي... لا تجادل، فهذا قانون طبيعة، لا جواد يسير بقوائم ثلاث، مهما عظم شرف نسبه، لك أن تغضب! ولك أن تتحدّى، وأن تتوعّد أيضاً، لكن جوادك سيبقى عاجزاً عن أن يطلق قوائمه للريح.

كاد الأمير أن يستسلم لسطوة قانون الطبيعة، لكن الأوسمة السلطانية التي تثقل صدره، وغلائل الحرير، وقشور الذهب التي تغشى مخدعه حالتْ دون لحظة التسامي التي كاد يبلغها، وصمّم على أنّ جواده قادرٌ على العدو بقوائم ثلاث، وعندما عجز عن أن يبرهن على ذلك بشكل عملي أمر بإعدام جياد السلطنة؛ لتورّطها بجريمة الخيانة العظمى، وأمر حرسه بمطاردة الريح، والقبض عليها، بتهمة تحدّي رغبته السامية، واعتكف من جديد حزيناً فرداً في مقصورته التي تطلّ على بوابة القصر حيث عُلِّق رأس حكيم الجبل، الذي أمر بتقديمه للنطع، وانهمك يفكّر في سبب عجز جواده عن أن يعدو على قوائم ثلاث... وطال تفكيره، وأكله النسيان، وخانته الريح من جديد، وتحدّتْ رغباته، وداعبتْ خصلات شعر امرأة مسجونة في برج منذ ألف عام؛ لأنها لم تركع...

تواصل إلكتروني

في بلدته حيث الفقر والجوع وأمراض الماء المعديّة لا أمراض نفسية، ففي تلك البلدة يكفي أن تجلس في مقعد خيزراني على قارعة الطريق أو على درجة من درجات سلّم البيت حتى تستطقب بعضاً من السابلة أو أصحاب الحاجات أو الجيران والأصدقاء لتحدّثه طويلاً حتى تتمزّق حنجرتك، فتفرغ ما تحمله النفس من خبائث وضغوط وضغائن، وتفرغ لنفسك، ولسماع أحاديث مجالسيك.

هكذا هي بلدته فيها كلّ شيء إلا المال والأمراض النفسيّة، أمّا في هذه المدينة الإسمنتية المتغوّلة، التي شيّدت بين ليلة وضحاها، وغصّت بالوجوه الغريبة فليس فيها إلا المال والأمراض النفسيّة.

منذ أشهر يعمل في هذه المدينة، يلوكه العمل المضني، وتمضغه الوحدة والغربة، يضمّ القرش إلى الآخر، ويصرّ ماله بحذر، وينتظر اللحظة التي سيعود فيها إلى بلده، حيث التواصل الإنساني بالمجان.

كان يتبع حمية مالية شديدة الصرامة، كي تتقلّص مدّة غربته

إلى أقلّ مدّة ممكنة، ولكنّه ضاق ذرعاً بصمته وبحظر التواصل الإنساني المفروض عليه، فلا بشر يكلمونه في هذا المكان خلا الموظفين والمدير يطلبونه بتقزّز لتأدية خدمات لهم، أو صاحب الغرفة التي يسكن فيها، يطرق بابه في بداية كلّ شهر، ويقول له كلمة واحدة يتيمة مكرورة، وهي: الإيجار، ثم يدير ظهره بعد أن يأخذ ماله لا يلوي علي شيء؛ وهو يطبق بحنان على المال المقبوض.

قرّر أن يشتري تواصلاً إنسانياً ولو استلزم ذلك أن يُخضعَ حميته المالية إلى شيء من المرونة، تهندم وَفْق ما يملك من قديم الملابس، ومشّط شعره، وانطلق سيراً إلى إحدى حوانيت المشروبات المشهورة في المدينة، جلس إلى طاولة فارغة، طلب فنجان قهوة مع بعض السكاكر اللذيذة، وطفق يتفرّس الوجوه، لعلّه يظفر بإنسانٍ يحدّثه، لكنّ انتظاره طال، واستنفد ثلاثة أقداح من الشاي، دون أن ينعم ولو بنظرة من عين، فكلّ زبون في الحانوت كان يختلي إلى جهاز حاسوبه الشخصي الخاص، ويتواصل عبره مع آخرين.

عجب في نفسه من حمق أولئك الذين يركنون إلى أجهزة صماء يتواصلون عبرها ، ويضربون صفحاً عن التواصل مع من حولهم من البشر، حاول أن يلفت نظر ذلك الشاب الأسمر الملتحي ، لعلّه يظفر منه بحديث من أيّ نوع ، بادله الشاب ابتسامة بابتسامة ، وجد في نفسه محفّزاً لكي يغادر مكانه ، ويتوجّه إلى طاولة الشاب الأسمر، رضخ لرغبته بالحال ، ابتسم ، وقال للشاب الأسمر ، وهو يمدّ إليه يداً

بعروقٍ بارزة ليصافحه: أنا اسمي مراد.

ردّ الشاب بأدب يعلوه تحفّظ واضح: أهلاً وسهلاً، وأنا اسمي محمد.

– فكّرت في أن نشرب فنجاني قهوة معاً.

ردّ الشاب الأسمر دون مبالاة: ولكنني مشغول الآن بالحديث مع صديق، اعطني عنوانك الإلكتروني، وسأتواصل معك ليلاً إن شاء الله.

– لكن لا عنوان إلكتروني عندي.

– خسارة، كنتُ أرغب حقاً بالحديث معك.

– وأنا كنتُ أرغب في ذلك أكثر منك.

– إذن خذ عنواني الإلكتروني، وراسلني عندما يتهيّأ لك ذلك.

– لا أظن... فأنا راحل في القريب.حقاً؟ إلى أين!

– إلى حيث لا نحتاج إلى عنوان بريدي لنتواصل إنسانياً.

– وأين ذلك؟!

– في بلدتي حيث الكلام من الفم إلى الأذن، ومن القلب إلى القلب، العين في العين، والنّفس قريب من النّفس...

– إذن لا تنسَ أن تراسلني من هناك، وأن تحدّثني عن بلدتك.

– اعتذر، فأنا سأكون عندها مشغول بالحديث مع الكثير من البشر المحمّلين برغبة الحديث والإفصاح.

أنتِ

قابلها منذ أيام معدودة، لكنّها كانتْ أيام الضياع والخوف والحرمان، لذا فقد كانتْ ملاذه وحصنه وعرّابته، وعدّها منقذته في زمن التيه الأكبر، ارتبطت أوّل الكلمات والأماكن والدراهم في بلاد الضياع بها، علّمته من معجم لغة قومها حيث نزل الكلمات التي يحتاجها للتعبير عن حاجاته الأساسية، وطلباته الملّحة، لكنّها لم تعلّمه كلمة "الحبّ"، إذ ما ظنّت أنّه سيحتاجها هناك حيث الصقيع والعلاقات التجارية الناجحة والوشائج الإنسانية المتهرئة، لكنّه احتاج إلى هذه الكلمة بالذات، فتّش عنها في معجمها القديم، ولكن جهله بتلك اللغة حال دون أن يقبض على كلمته المنشودة.

وقف أمامها، أومأ كثيراً دون أن يفلح في أن يقول لها تلك الكلمة السحرية، ابتسم مستسلماً لعيّه، وقال لها وهو يراقب ارتعاشات رموشها، التي تداعب نمشها البني المشاكس، وهي تنتظر بفضول كلمته، وقال: الصداقة، والأمان، والدفء، وأنا كلّها أنتِ.

عنوان المؤلفة

الأردن- عمان- ١١٩٤٢

ص.ب: ١٣١٨٦

البريد الإلكتروني:

selenapollo@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠٠٦/٦٠٠

الرقم الدولي(ردمك): X-٩٩٩٢١-٤٣-٠٧-١